الفصل الثامن والثلاثون

الانهيار السياسى

١٧٨٣ — ٨٩

---

١ — القلادة الماسية : ١٧٨٥

فى يونيو ١٧٨٣ عاد أكسيل فون فرسن إلى فرنسا بعد أن أبلى بلاء حسناً فى الدفاع عن أمريكا وكسب الفخار فى يوركتون ، فوجد مارى أنطوانيت فى روعة حسنها الذى تركها عليه قبل ثلاث سنين . وحتى فى ١٧٨٧ ، حين كانت فى الثانية والثلاثين ، وجدها آرثر ينج « أجمل امرأة » رآها فى البلاط ذلك اليوم[1] . ولم تتردد فى تأييد طلب جوستاف الثالث إلى لويس السادس عشر أن يعين فرسن الوسيم كولونيلا للفوج السويدى الملكى فى الجيش الفرنسى — مما سيتيح له قضاء وقت غير قصير فى فرساى . واعترف أكسيل لأخته صوفى بأنه يحب الملكة ، وأنه يعتقد أن حبه يلقى استجابة منها . وما من شك فى أنها كانت تحس الود الحار نحوه ، وقد تبادلا الرسائل الرقيقة بعد ثمانية أعوام عقب المحاولة الباسلة التى بذلها لتهريبها هى والملك من فرنسا ، غير أن دعوتها لصوفى أن تأتى وتعيش بقربه توحى بعزمها على أن تحتفظ بشعورها نحوه فى نطاق الحدود اللائقة[2] . ولم يكد يؤمن ببراءتها أحد فى البلاط غير زوجها . وأكدت علاقتها الآثمة أغنية ذاعت بين عامة الشعب تقول :

إن أشئت أن تعرف
ديوثا ، وابن زنا ، وامرأة فاجرة ،
فانظر إلى الملك ، والملكة .
والأمير ولى العهد [3] .

ولقد لخص لوى — فليب د سيجور الأمر فى هذه العبارة : « لقد فقدت سمعتها ولكنها صانت فضيلتها »[٤] .

وفى ٢٥ مارس ١٧٨٥ ولدت مارى أنطوانيت ابناً ثانياً سمى لوى — شارل . وسر الملك سروراً عظيماً فوهبها قصر سان — كلو الذى كان قد اشتراه من الدوق أورليان بستة ملايين من الجنيهات . وأدان البلاط غلو تقديره للملكة ، ولقبتها باريس على سبيل التهكم (السيدة العجز)[٥] . وقد استخدمت نفوذها على زوجها لتوجيه تعيينه للوزراء والسفراء وغيرهم من كبار القوم وحاولت دون جدوى أن تغير من كراهيته للتحالف مع النمسا ، وزادت جهودها هذه من كره الشعب لها .

فى هذا الجو من عداء الشعب لـ « النمساوية » L, Autrichienne كما كانوا يلقبونها نستطيع أن نفهم تصديق الناس لقصة القلادة الماسية . وكانت هذه القلادة ذاتها أمراً لايصدق ، فهى خيط من ٦٤٧ ماسة قيل إنها تزن ٢,٨٠٠ قيراط[٦] * وكان اثنان من جواهرية البلاط هما شارل بومر وبول باسانج — قد اشتريا ماساً من نصف العالم ليصنعا قلادة لمدام دوبارى ، اثقين من أن لويس الخامس عشر سيبتاعها لها . ولكن لويس الخامس عشر مات ، فمن تراه يشترى الآن حلية باهظة الثمن كهذه ؟ وعرضها الجوهريان على مارى أنطوانيت لقاء ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه ، فرفضتها لغلوها الشديد[٧] وهنا تصدر الصورة الكردينال برنس اوى — ريينه — ادوار دروهان .

وكان الكردينال ثمرة ناضجة لأسرة من أعرق الأسر الفرنسية وأغناها ، قيل إن دخله بلغ ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه فى العام . رسم قسيساً فى ١٧٦٠ ، وعين مساعداً لعمه رئيس أساقفة ستراسبورج ، وبصفته هذه رحب رسمياً بمارى أنطوانيت أول مرة دخلت فيها فرنسا (١٧٧٠) . فلما وجد ستراسبورج ميداناً يضيق به طموحه ، عاش أكثر وقته فى باريس ، حيث انضم إلى

(*) إذا أخذنا تقدير عام ١٩٦٠ معيارا لسعر الماس (١,٢٠٠ ريال القيراط) كانت القلادة تساوى ٣,٣٦٠,٠٠٠ دولار .

الحزب المناوىء للنمسا والملكة . وفى ١٧٧١ أوفده لويس السادس عشر إلى فيينا مبعوثاً خاصاً لاستطلاع المناورات النمساوية لتقسيم بولنده . واغتاظت ماريا تريزا من الولائم الباذخة التى كان يولمها ومن بثه الشائعات الفاضحة عن ولى العهد الجديد . واستدعاه لويس السادس عشر إلى باريس ، ولكن الأقارب الأقوياء أقنعوا الملك بأن يعينه كبير المتصرفين فى المبرات الملكية (١٧٧٧) . وبعد عام رقى القس المرح الوسيم إلى رتبة الكردينالية ، وفى ١٧٧٩ أصبح رئيساً لأساقفة ستراسبورج وهناك التقى بكاليوسترو فوقع تحت سحر المشعوذ وانطلت عليه دعاواه . وإذ كان روهان قد ارتفع إلى هذا المقام العالى بهذه السرعة الكبيرة ، فقد خيل إليه أن فى وسعه الطموح إلى تقلد منصب كبير وزراء لويس السادس عشر ، شريطة أن يكفر عن سنوات معارضته للملكة .

وكان من أسباب لهوه فى باريس مدام دلاموت — قالوا ، المرأة الجذابة الذكية . وكانت جان دسان — ريمى دفالوا هـــذه تدعى أنها تحدرت من هنرى الثانى ملك فرنسا وإحدى خليلاته . ولكن أسرتها فقدت ثروتها ، فاضطرت جان إلى الاستجداء فى الشوارع . وفى ١٧٧٥ أكدت الحكومة نسبها الملكى ، ومنحتها معاشاً قدره ثمانمائة فرنك . وفى ١٧٨٠ تزوجت أنطوان دلاموت ، وكان ضابطاً فى الجيش يهوى الدس والتآمر ، خدعها فى أمر دخله ، فكان زواجهما على حد قولها رباطاً بين القحط والمجاعة[٨] . وقد انتحل لقب كونت ، فأصبحت جان كونتيسه دلاموت ، وبهذه الصفة راحت ترف حول باريس وفرساى ، وتغزو قلوب الرجال بما سمته « مظهر العافية والشباب (الذى يسميه الرجال التألق) ، وبشخصية غاية فى الحيوة والمرح »[٩] . فلما أصبحت خليلة للكردينال (١٧٨٤)[١٠] ، ادعت أن لها صلات وثيقة جداً فى البلاط ، وعرضت أن تنال له موافقة الملكة على أهدافه . فكلفت ريتو دفيليت تقليد خط جلالتها ، وجاءت الكردينال برسائل حب زعمت أنها من ماري أنطوانيت ، وأخيراً وعدت بأن ترتب له لقاء مع الملكة . ثم دربت موسساً تدعى « البارونه » أوليفيا على انتحال شخصية الملكة ، وفى « بستان فينوس »

« بقرساى ، فى جوف الليل البهيم ، التقى الكوردينال فترة قصيرة بهذه المرأة ، وحسبها أنطوانيت ، ولثم قدمها ، وتلقى منها وردة عربوناً للتصالح (أغسطس ١٧٨٤) ، أو هكذا تروى « الكونتيسة »[١١] .

ثم غامرت مدام دلاموت الآن بخطة أكثر جرأة لو نجحت لوضعت حداً سحداً لفقرها . ذلك أنها زورت خطاباً من الملكة يخول لروهان شراء القلادة باسمها ، وقدم الكردينال الخطاب إلى بومر ، فسلمه هذا الجواهر (٢٤ يناير ١٧٨٥) بعد تعهد كتابى منه بدفع ١,٦٠٠,٠٠٠ فرنك منجمة . وأخذ روهان الماسات إلى الكونتيسة ، وبناء على طلبها سلمها إلى ممثل مزعوم للملكة . أما تاريخ الماسات بعد ذلك فغير مؤكد ، ويبدو أن الكونت » دلاموت أخذها إلى انجلتره وباعها قطعة قطعة [١٢] .

وأرسل بومر فاتورة بالقلادة إلى الملكة فردت بأنها لم تطلبها قط وأنها لم تكتب قط الخطاب الذى يحمل اسمها . فلما وافى القسط الأول (٣٠ يوليو ١٧٨٥) ولم يعرض روهان غير ثلاثين ألف فرنك من المبلغ المستحق وقدره ٤٠٠,٠٠٠ عرض بومر الأمر على البارون دبروتوى وزير البيت الملكى . فأنبأ بروتوى به الملك . فاستدعى لويس الكردينال ودعاه لتفسير تصرفاته ، فأراه روهان بعض خطابات زعم أنها من الملكة . وفطن الملك للتو إلى أنها مزورة وقال « ليس هذا خط الملكة ، والتوقيع ليس له حتى الشكل المميز » [١٣] ، واشتبه فى أن روهان وغيره من الحزب المناوىء لزوجته قد بيتوا هذه المؤامرة لتشويه سمعتها . فأمر بزج الكردينال فى الباستيل (١٥ أغسطس) وطلب إلى الشرطة البحث عن مدام دلاموت وكانت قد هربت إلى المخبأ تلو المخبأ ، ولكن أمكن القبض عليها ، فزجت هى أيضاً أيضاً فى الباستيل . كذلك قبض على « البارونة » أوليفيا ، وريتو دفيليت ، وكاليوسترو ، الذى اشتبه خطأ فى أنه مدبر المؤامرة ، مع أنه فى الواقع فعل قصاراه ليثبطها[١٤] .

وأعتقد لويس أنه لابد من محاكمة علنية لإقناع الشعب ببراءة الملكة ، فعرض القضية على أعدائه ، وهم برلمان باريس . وكانت المحاكمة أشد قضايا

القرن فى فرنسا إثارة لاهتمام الرأى العـــام ، كما أصبحت قضيـــة وارن هيستنجز فى انجلتره بعدها بثلاث سنين . وصدر حكم البرلمان فى ٣١ مايو ١٧٨٦ . فأعلنت براءة الكردينال روهان ، باعتباره مخدوعاً أكثر منه خادعاً ، ولكن الملك حرمه مناصبه الرسمية ونفاه إلى دير لاشيز — ديو . أوحكم على اثنين من الشركاء فى الجريمة بالسجن ، وبرئت ساحة كاليوسترو . أما مدام دلاموت فقد جردت من ملابسها علانية وضربت بالسوط فى « الكوردمى » أمام قصر العدالة ، ورسمت بحزف V (اختصاراً لكلمة Voleur أى اللصة) وحكم عليها بالسجن مدى الحياة فى سجن سالبتريير ، وهو سجن النساء سيئى السمعة . وبعد أن قضت عاماً فى هذا المحبس الذى يورث الجنون فرت ، ولحقت بزوجها فى لندن ، وكتبت ترجمة لحياتها شرحت فيها كل شىء ، ثم ماتت فى ١٧٩١ .

واغتبط النبلاء وجماهير الباريسيين بتبرئة ساحة الكردنيال وانتقدوا الملكة لإيصالها الأمر إلى محاكمة علنية ، وكان الشعور العام أن شرهها المعروف للمجواهر هو عذر الكردينال فى تصديق الرسائل المزورة . وغالت الشائعات والأقاويل إلى حد اتهامها بمخللة روهان [١٥] ، مع أنها لم تكن رأته خلال السنوات العشر السابقة للقبض عليه . ومرة أخرى صانت الملكة عرضها ولحق الأذى بسمعتها . قال نابليون « إن موت الملكة يجب أن يؤرخ من محاكمة القلادة الماسية [١٦] .

٢ — كالون : ١٧٨٣ — ٨٧

فى ١٠ نوفمبر ١٧٨٣ عين الملك شارل — ألكسندر دكالون مراقباً عاماً للمالية . وكان كالون قد أصاب نجاحاً فى منصب الناظر الملكى بمتز وليل ، واشتهر بآدابه الساحرة ، وروحه المرحة ، وبراعته فى أمور المال — رغم أنه هو ذاته كان غارقاً فى الدين شأنه شأن الحكومة التى دعى لإنقاذها [١٧] . ولم يجد غير ٣٦٠,٠٠٠ فرناك فى الخزانة ، مع دين قصير الأجل قدره ٦٤٦,٠٠٠,٠٠٠ ، يزيد خمسين مليوناً من الفرنكات كل سنة . وقد رفض كما رفض نكير من قبل فرض المزيد من الضرائب مخافة أن يثير الأمر التمرد

ويضعف الاقتصاد ، وبدلا من الضرائب قرر عمل يانصيب بعد المفاوضة ، جاء بمائة مليون من الجنيهات ، ثم لجأ إلى الأكليروس وظفر منهم بمنحة قدرها ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات بعد أن تعهد بمصادرة الطبعة التى أصدرها بومارشيه من أعمال فولتير . ثم أعاد سك العملة الذهبية فربح للخزانة بذلك خمسين مليوناً . واقترض ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ من المصرفيين . وحداه الأمل فى حفز التجارة إلى تخصيص مبالغ كبيرة للمشروعات الصحية العامة فى المدن ولتحسين الطرق والترع والثغور ، واستفادت موانىء الهافر ودنكرك وديبب ولاووشيل ، وبدأت الأرصفة الكبرى فى شربورج ، وعملا بالنظرية التى تزعم أنه لابد للحكومة من أن تتخذ لها دائماً واجهة من الثراء ، خصص الاعتمادات دون تردد للحاشية ، ولم يسأل أسئلة حول نفقات أخوة الملك والملكة . أما الملك نفسه ، فإنه برغم نواياه الطيبة سمح بزيادة نفقات بيته من ٤,٦٠٠,٠٠٠ جنيه فى ١٧٧٥ إلى ٦,٢٠٠,٠٠٠ فى ١٧٨٧ (١٨) .

وكان كالون يقترض كلما زاد إنفاقه ، وكلما اقترض ازدادت الفائدة التى يتعين دفعها على الدين . وفى أغسطس ١٧٨٦ اعترف للملك المذهول أن كل الوسائل قد استنفدت ، وأن الدين القومى والعجز السنوى زادا زيادة لم يسبق لها نظير ، وأنه لانجاة للحكومة من الخراب المالى إلا بتوسيع الضرائب لتشمل النبلاء الأكليروس . وكان كالون عليماً بأن برلمان باريس الذى كان آنئذ مرتبطاً بنبلاء السيف فى حلف سافر سيقاوم هذا الاقتراح ، ومن ثم اقترح أن يدعى لفيف من الرجال البارزين يختارهم بمعرفته من الطبقات الثلاث كلها فى جميع أرجاء فرنسا إلى فرساى للتشاور إنقاذاً لمالية الدولة ، فوافق الملك .

والتأم شمل « مجلس الأعيان » فى ٢٢ فبراير ١٧٨٧ ، وكان يضم ٤٦ نبيلا ، و ١١ كنسياً ، و ١٢ عضواً من مجلس الملك ، و ٣٨ قاضياً ، و ١٢ نائباً من « أقطار الدولة » (وهى أقاليم تتمتع بامتيازات خاصة) ، و ٢٥ موظفاً بلدياً ، وجملتهم ١٤٤ . ووجه كالون إليهم الخطاب بصراحة تنطوى على الشجاعة ، وأفاض فى الحديث عن المساوىء التى لابد من القضاء عليها

أيا كان رسوخها فى الزمن والميول المغرضة ، لأنها « ثقيلة الوطأة على أكثر الطبقات إنتاجاً وكدا » . وأدان عدم المساواة العام فى منح الإعانات المالية ، و « عدم التناسب الهائل فى النصيب الذى تسهم به مختلف الأقاليم والرعايا الذين يدينون بالتبعية لملك واحد » [١٩] . ثم عرض اقتراحات أكثر راديكالية من اقتراحات طورجو ، وقدمها على أن الملك قد وافق عليها ، ولو أنها نفذت لربما تفادت اندلاع الثورة . وقبل الأعيان بعضها مما تحدر من عهد طورجو كخفض ضريبة الملح ، وإلغاء المكوس على التجارة الداخلية ، وإعادة حرية الاتجار فى الغلال وإنشاء المجالس الإقليمية ، وإنهاء السخرة . أما طلبه فرض ضريبة جديدة وعامة على الأرض فقد رفض ، وكانت حجة الأعضاء الأشراف والأكليروس أن « إعانة الأرض » تقتضى مسحاً لجميع الأراضى ، وإحصاء لكل ملاك الأرض ، فى فرنسا ؛ وهذا يستغرق سنة ، ولن يكون له أثر فى الأزمة الراهنة .

ولجأ كالون إلى الشعب بنشر خطبه ، ولم يستطب النبلاء ولا الأكليروس هذا الالتجاء للرأى العام . ورد المجلس بأن طالب كالون بتقديم حساب كامل عن الإيرادات والمصروفات أثناء وزارته . فرفض الامتثال للطلب ، لأنه عرف أن الكشف عن وسائله ونفقاته سيكون فيه القضاء عليه . وأصر المجلس على أن الحاجة إلى القصد فى النفقات أمس منها إلى تعديل هيكل الضرائب ، ثم تشككك فى سلطته فى وضع نظام جديد للضرائب ، فمثل هذه السلطة لا يملكها إلا مجلس طبقات الأمة (Etats Généraux وهو مؤتمر قومى من نواب تختارهم الطبقات الثلاث états) ولم يدع مجلس كهذا منذ عام ١٦١٤ .

ووافق أحد الأعيان ، وهو لافاييت ، على معظم مقترحات كالون ، ولكنه كان عديم الثقة بالرجل — فاتهمه ببيع بعض الأراضى الملكية دون علم الملك ، وتحداه كالون أن يثبت التهمة ، فأثبتها[٢٠] . وكان لويس السادس عشر قد ساءه التجاء كالون للشعب متخطياً بذلك رجال الحكومة ، فأدرك

الآن بعد أن تكشفت له الأمور تباعاً أن كالون قد غشه فى حالة الخزينة ، ووضح له أنه لن يستطيع الحصول على أى تعاون من الأعيان مادام كالون مراقباً للمالية . فلما طاب كالون إقالة ناقده البارون دبرتوى الذى كان صديقاً شخصياً لمارى أنطوانيت ، أشارت على الملك بأن يقبل كالون بدلا منه . فاتبع النصيحة بعد أن أرهقته هذه الضجة الشديدة (٨ أبريل ١٧٨٧) . أما كالون فقد هرب سراً إلى انجلتره بعد أن علم بأن برلمان باريس يخطط للتحقيق فى إدانته وفحص شئونه الخاصة . وفى ٢٣ أبريل حاول لويس تهدئة الأعيان بالوعد بالوفر الحكومى ونشر مالية الدولة . وفى أول مايو ، وبناء على نصيحة الملكة أيضاً ، عين أحد الأعيان رئيساً لمجلس فرنسا .

٣ — لومين دبرين : ١٧٨٧ — ٨٨

كان رئيساً لأساقفة تولوز ، ولكنه كان حر الفكر حرية اشتهر بها حتى أن جماعة الفلاسفة رحبوا بتقلده السلطة . وقبل ست سنوات ، حين زكى ليخلف كرستوف دبومون رئيساً لأساقفة العاصمة ، اعترض لويس السادس عشر قائلا « يجب على الأقل أن يكون لنا رئيس أساقفة لباريس مؤمن بالله »[٢١] . وكان من أعظم ضرباته الموفقة وهو وزير للمالية أنه حصل على نقله لرآسة أساقفة سانس ، وهو منصب أغنى كثيراً من منصب رئيس أساقفة تولوز . وقد أقنع الأعيان بالموافقة على خطته الرامية إلى جمع ثمانين مليوناً من الفرنكات ، ولكن حين طاب إليهم الموافقة على ضريبة الأرض الجديدة عادوا يعتذرون بأنهم لا يملكون سلطة هذه الموافقة . فلما رأى لويس أن الأعيان لن يزيدوا على ذلك أقاله فى لطف (٢٥ مايو ١٧٨٧) .

وقد حاول برين تحقيق الوفور بطلبه الخفض فى نفقات كل مصلحة حكومية ، فقاومه رؤساء المصالح ، ولم يؤيد الملك وزيره . وخفض لويس نفقات بيته بمليون فرنك ، وارتضت الملكة خفضاً كهذا (١١ أغسطس) وقد أوتى برين من الشجاعة ما جعله يرفض المطالب المالية التى طالب بها البلاط ، وأصدقاء الملكة ، وأخ الملك . ومما يشرفه أنه استصدر من

البرلمان الكاره (يناير ١٧٨٨) وفى وجه مقاومة معظم زملائه الأساقفة ، المرسوم الملكى الذى بسط مظلة الحقوق المدنية على البروتستنت .

وكان من سوء طالعه أنه تقلد السلطة فى فترة انتشر فيها انكماش اقتصادى استمر حتى الثورة ، نتيجة لنقصان المحاصيل مراراً ولمنافسة الواردات البريطانية . وفى أغسطس ١٧٨٧ تصايحت جماهير المشاغبين الجائعة فى باريس بالنداءات الثورية وأحرقت الدمى التى مثلت بعض الوزراء . كتب أرثر ينج فى ١٣ أكتوبر يقول « يبدو أن الناس جميعاً يشعرون بأن رئيس الأساقفة لن يقوى على تخليص الدولة من عبء موقفها الراهن ، . . . وأن شيئاً خارقاً للعادة سيقع ، وأن إشهار الدولة لإفلاسها فكرة ليست بعيدة الذيوع إطلاقاً »(٢٢) ثم أضاف فى اليوم السابع عشر « إن رأياً واحداً غلب على الجماعة كلها ، وهو أنهم على شفا ثورة عظيمة فى الحكومة . . . وغليان شديد فى جميع صفوف الناس ، الذين يتوقون إلى تغيير ما ، . . . وخميرة قوية من الحرية ، تكبر كل ساعة منذ الثورة الأمريكية »(٢٣) .

وكانت الإصلاحات التى دعا إليها كالون وبريين ، وقبلها الملك ، تنتظر تسجيل البرلمانات لها وإقرارها قانوناً للدولة ، أبا برلمان باريس فقد وافق على إطلاق حرية تجارة الغلال وتحويل السخرة إلى مبلغ نقدى ، ولكنه رفض التصديق على ضريبة دمغة . وفى ١٩ يوليو ١٧٨٧ أرسل إلى لويس السادس عشر تصريحاً بأن « الأمة ، ممثلة فى مجلس الطبقات ، هى وحدها صاحبة الحق فى أن تمنح الملك الموارد التى قد يتبين أنه لا غنى عنها »(٢٤) . ووافقت جماهير باريس على هذا الحكم ، وفاتها أن مجلس الطبقات ، كما هو معلوم إلى ذلك الحين فى التاريخ الفرنسى ، ليس إلا مؤسسة إقطاعية شديدة الانحياز إلى الطبقات المميزة . أما نبلاء السيف ، الذين لم تغيب عنهم هذه الحقيقة ، فقد وافقوا على التصريح ، ومنذ ذلك الحين انضموا إلى البرلمان ونبلاء الرداء فى هذا « التمرد النبيل » الذى مهد للثورة . وأما لويس فقد تردد فى دعوة مجلس الطبقات مخافة أن ينهى المجلس استبدادية الملكية البوربونية بتأكيده للسلطات التشريعية .

وفى أغسطس ١٧٨٧ قدم للبرلمان مرسوماً بضريبة على جميع الأراضى فى جميع الطبقات ؛ فرفض البرلمان تسجيلها . فدعا لويس الأعضاء إلى مجلس قضائى أعلى « سرير عدالة » فى فرساى ، وأمرهم بالتسجيل ، فلما عاد الأعضاء إلى باريس أعلنوا أن التسجيل باطل ، وعادوا يطالبون بعقد مجالس الطبقات . فنفاهم الملك إلى ترويه (١٤ أغسطس) وثارت البرلمانات الإقليمية احتجاجاً ، واندلعت حوادث الشغب فى باريس ، وأذعن برين والملك ، فاستدعى البرلمان (٢٤ سبتمبر) وسط مظاهر ابتهاج الشعب .

ثم تجدد الصراع حين رفض البرلمان التصديق على اقتراح برين جمع قرض قدره ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . ودعا الملك لعقد « جلسة ملكية » للبرلمان (١١ نوفمبر ١٧٨٧) قدم فيها وزراؤه الحجج المؤيدة لتسجيل القانون . ولكن البرلمان أصر على الرفض ، وصاح الدوق ورليان « مولاى ، هذا غير قانونى ! » وأجاب لويس فى نوبة غضب طائشة على غير العادة « هذا لا يغير من الأمر شيئاً ! انه قانونى لأننى أريده » — وهكذا أكد مبدأ الحكم الاستبدادى فى غير مواربة . ثم أمر بتسجيل المرسوم ، فسجل ، ولكنه ما إن غادر القاعة حتى ألغى البرلمان التسجيل . فلما سمع لويس بهذا نفى الدوق أورليان إلى فيلليه كوتريه ، وزج باثنين من أعضاء البرلمان فى الباستيل (٢٠ نوفمبر) . واحتجاجاً على هذين الأمرين وغيرهما من أوامر القبض دون محاكمة ، بعث البرلمان إلى الملك (١١ مارس ١٧٨٨) « اعتراضات » اشتملت كلاماً سر النبلاء والعامة على السواء : « ان القوانين التعسفية تنتهك الحقوق التى لا يمكن انتزاعها ... ان الملوك يحكمون إما بالقهر أو بالقانون . . . والأمة تطلب من جلالته أعظم خير يمكن لأى ملك أن يعطيه لرعاياه — وهو الحرية »[٢٥] .

ورأت الوزارة أن تهدىء ثائرة البرلمان بالإذعان لما طالب به من نشر بيان بإيرادات الحكومة ومصروفاتها . فزاد هذا النشر الطين بله لأنه كشف عن عجز مقداره ١٦٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . ورفض المصرفيون أن يقرضوا الدولة مزيداً من المال ما لم يصدق البرلمان على القرض ، وأقسم البرلمان أنه

لن يفعل . وفى ٣ مايو ١٧٨٨ أصدر « إعلاناً للحقوق » ذكر لويس السادس عشر ووزراءه بأن فرنسا « ملكية يحكمها ملك ، طبقاً للقوانين » ، وأن على البرلمان ألا يتخطى عن حقه القديم فى تسجيل المراسيم الملكية قبل أن تصبح قوانين . ثم عاود المطالبة بعقد مجلس الطبقات . وأمر الوزراء باعتقال عضوين من زعماء البرلمان هما دبمرنيل وجوابلار (٤ مايو) ، وتم هذا وسط فوضى واضطراب فى القاعة واحتجاجات غاضبة فى الشوارع . وفى ٨ مايو أعلن برين عزم الحكومة على إنشاء محاكم جديدة ، ترأسها « محكمة مطلقة السلطة » يكون لها وحدها منذ الآن سلطة تسجيل المراسيم الملكية ، أما البرلمانات فتقصر سلطتها على أداء الوظائف القضائية البحته ، ثم يصلح هيكل القانون الفرنسى بجملته . ومنح برلمان باريس أثناء ذلك « أجازة » — أى أنه من الناحية الفعلية أوقف عمله .

وعليه لجأ البرلمان إلى النبلاء ، والأكليروس ، والبرلمانات الإقليمية ، فخف الجميع لتأييده . وأرسل الأدواق والأشراف إلى الملك احتجاجات على إلغاء حقوق البرلمان التقليدية . وأدان مؤتمر للأكليروس (١٥ يونيو) « المحكمة المطلقة لسلطة » الجديدة ، وخفض « منحته » من إثنى عشر مليون جنيه فى المتوسط إلى ١,٨٠٠,٠٠٠ ، ورفض أى معونة أخرى حتى يعاد البرلمان [٢٦] . ثم شقت البرلمانات الواحد تلو الآخر عصا الطاعة على الملك . وأعلن برلمان بو (عاصمة بيارن) أنه لن يسجل مراسيم رفضها برلمان باريس ؛ وحين هددت الحكومة أعضاءه باستعمال القوة تسلح الشعب ليحميهم . أما برلمان روان (عاصمة نورمنديه) فقد شهر بوزراء الملك باعتبارهم خرنة ، وحرم من حماية القانون كل الأشخاص الذين يستخدمون المحاكم الجديدة . وأصدر برلمان رين (عاصمة برتنى) قوانين مماثلة ، فلما أرسلت الحكومة الجند لفضه تصدى لهم موظفو النبلاء المحليون المسلحون[٢٧] . وحين أذاع الحاكم العسكرى فى جرينوبل (عاصمة الدوفينه) مرسوماً ملكياً بحل البرلمان المحلى ، هبت جماهير المدينة التى عززها الفلاحون الذين دعاهم ناقوس الخطر ، فقذفت الجند الكارهين لمهمتهم ببلاط من الأسطح ،

وأكرهت المحاكم على سحب مرسوم الملك (٧ يونيو ١٧٨٧ ، « يوم البلاط ») وإلا شنقوه على ثريا ردهته . ولكن القضاة امتثلوا لأمر ملكى بنفيهم .

ولقد صنع مجتمع جرينوبل التاريخ بانتقاضه هذا . وصمم النبلاء الاكليروس والعامة على إعادة مجلس طبقات الدوفينية ليلتئم فى ٢١ يولو . ولما كانت الطبقة الثالثة قد قادت النصر فى « يوم البلاط » فقد منحت تمثيلا مكافئاً لتمثيل الطبقتين الأخيرين مجتمعتين ، واتفق على أن يكون التصويت فى المجلس الجديد بالأفراد لا بالطبقات ، وقد وضعت هذه الاتفاقات سوابق لعبت دوراً فى تنظيم مجلس الطبقات القومى . فلما حظر على مجلس طبقات الدوفينه أن يجتمع فى جربنوبل ، اجتمع فى فيزيل على بضعة أميال ، وهناك ، بقيادة محام شاب يدعى جان — جوزيف مونييه ، وخطيب شاب يدعى أنطوان بارناف ، وضع النواب الخمسمائة قرارات (أغسطس ١٧٨٨) أيدت حقوق البرلمانات فى التسجيل ، وطالبت بألغاء أوامر القبض الملكية ، ودعت إلى عقد مجلس لطبقات الأمة ، وتعهدت بعدم الموافقة إطلاقاً على ضرائب جديدة ما لم يصدق عليها مجلس الطبقات . هنا كانت إحدى بدايات الثورة الفرنسية : فإن إفليماً بأسره تحدى الملك ، وطالب فى واقع الأمر بملكية دستورية .

واستسلم الملك بعد أن قهره هذا التمرد الذى شمل الأمة كلها تقريباً على السلطة الملكية ، فقرر أن يدعو مجلس الطبقات ، ولما كان آخر اجتماع لهذه الهيئة قد انقضى عليه ١٧٤ عاما ، ولما كان نمو الطبقة الثالثة قد استحال معه اتباع الإجراءات القديمة ، فقد أصدر لويس السادس عشر (٥ يوليو ١٧٨٨ (نداء غير عادى على أنه أمر من أوامر مجلس الملك :

« سيحاول جلالته العمل بما يقرب من الإجراءات القديمة ، ولكن إذا لم يتيسر التحقق من هذه الإجراءات فإنه يريد أن يسد الثغرة بالتأكد من مشيئة رعاياه . . . وعليه فقد قرر الملك أن يأمر بإجراء كل البحوث الممكنة الخاصة بالأمور سالفة الذكر فى جميع محفوظات كل إقليم ، وأن تبلغ نتائج هذه البحوث إلى مجالس الطبقات الإقليمية ومؤتمراتها ، . . . التى بدورها

تبلغ جلالته برغباتها . . . ويدعو جلالته جميع الدارسين والأشخاص المتعاملين فى مملكته . . أن يوافوا حامل الأختام بجميع المعلومات والمذكرات المتصلة بالشئون التى يتضمنها هذا المرسوم »[٢٨] .

وفى ٨ أغسطس دعا لويس طبقات فرنسا الثلاث أن توفد مندوبين إلى دورة لمجلس الطبقات تجتمع بفرساى فى أول مايو ١٧٨٩ . ثم عطل فى اليوم ذاته « المحكمة المطلقة السلطة » التى سرعان ما طواها التاريخ فى زوايا النسيان . وفى ١٦ أغسطس اعترفت الحكومة بإفلاسها فى الواقع ، إذ أعلنت أن التزامات الدولة ابتداء من ٣١ ديسمبر ١٧٨٩ لن تدفع كلها عملة بل يدفع بعضها ورقاً على المواطنين جميعاً أن يقبلوه عملة قانونية . وفى ٢٥ أغسطس استقال برين محمد بالرضى والثراء فى الوقت الذى أحرقت فيه جماهير باريس دمية تصوره . ثم اعتكف فى سانس ، وهناك انتحر فى ١٧٩٤ .

٤ — عودة نكير : ١٧٨٨ — ٨٩

وطلب الملك إلى نكير على مضض أن يعود إلى الحكومة (٢٥ أغسطس) ومنحه الآن لقب الوزير ومقعداً فى المجلس الملكى . وهلل الجميع لهذا التعيين من الملكة والأكليروس إلى المصرفيين وعامة الشعب . وتجمع حشد فى فناء قصر فرساى ليرحبوا به ، فخرج إليهم وقال لهل « نعم يا أبنائى ، أنا باق ، فاطمئنوا » ووقع بعضهم على ركبهم وقبلوا يديه[٢٩] فبكى على طريقة ذلك العصر .

على أن الخلل الذى استشرى فى الإدارة ، وفى الشوارع ، وفى الفكر الحكومى والشعبى ، كان قد قارب جداً حالة التحلل السياسى بحيث كان قصارى ما استطاعة نكير هو الاحتفاظ بالاستقرار حتى يجتمع مجلس الطبقات ، ثم بلفتة كريمة منه لاستعادة الثقة بالحكومة وضع ملبونى فرنك من ماله فى الخزانة ، وارثهن ثروته الخاصة ضماناً جزئياً لالتزامات الدولة[٣٠] . ثم ألغى الأمر الذى صدر فى ١٦ أغسطس بإلزام حملة السندات بقبول

البنكنوت بدلا من النقود ، وارتفعت أسعار السندات الحكومية ثلاثين فى المائة فى السوق ، وقدم المصرفيون من المال للخزانة ما يكفى لتجاوز الأزمة عاما .

وعملا بنصيحة نكير دعا الملك البرلمان ثانية (٢٣ سبتمبر) . واقترف البرلمان فى نشوة انتصاره خطأ التصريح بأن مجلس الطبقات القادم ينبغى أن يعمل كما عمل سابقه فى ١٦١٤ — أى منعقداً بطبقات منفصلة ومصوتاً فى وحدات طبقية ، وهذا كفيل بأن يصيب الطبقة الثالثة أوتوماتيا بالعجز السياسى . أما جماهير العامة التى كانت قد صدقت دعوى البرلمان بأنه يدافع عن الحرية ضد الطغيان ، فقد أدركت أن الحرية المقصودة هى حرية الطبقتين المميزتين فى التسيد على الملك . وهكذا حرم البرلمان نفسه ، بانضمامه على هذا النحو إلى صف النظام الإقطاعى ، من تأييد الطبقة الوسطى القوية ، ولم يعد منذ الآن عاملا مؤثراً فى تشكيل الأحداث . وبلغ « التمرد النبيل » بهذا حدوده وأنهى شوطه ، ثم أخلى الآن مكانه للثورة البورجوازية .

وقد زاد مهمة نكير عسراً ما حل بالبلاد عام ١٧٨٨ من قحط انتهى بعواصف ثلجية أتلفت المحاصيل الهزيلة . وكان شتاء ١٧٨٨ — ٨٩ من أقسى ماعرفه تاريخ فرنسا ، ففى باريس هبط الترمومتر إلى ١٨° تحت الصفر الفارنهيتى ، وتجمد السين تماماً من باريس إلى الهافر . وارتفع سعر الخبز من تسعة سنتات فى أغسطس ١٧٨٨ إلى أربعة عشر فى فبراير ١٧٨٩ ، وبذلت الطبقات العليا قصارى جهدها للتخفيف عن الشعب ، وأنفق بعض النبلاء ، كالدوق أورليان ، مئات الألوف من الجنيهات فى إطعام الفقراء وتدفئتهم ، وتبرع رئيس الأساقفة بأربعمائة ألف جنيه ، وظل دير للرهبان يطعم ألفاً ومائتى شخص يومياً على مدى ستة أسابيع [٣٢] . وحظر نكير تصدير الغلال ، واستورد منها ما قيمته سبعون مليون جنيه ، فأمكن تفادى المجاعة ، ولكنه ترك لخلفائه أو لمجلس الطبقات مهمة سداد القروض التى اقترضها .

ثم أقنع الملك أثناء ذلك (٢٧ ديسمبر ١٧٨٨) بأنه يجب فى مجلس الطبقات القادم أن يكون نواب الطبقة الثالثة مساوين فى العدد لنواب الطبقتين الأخيرتين مجتمعتين ، وذلك رغم النصيحة المضادة التى أشار بها النبلاء الأقوياء . وفى ٢٤ يونيو ١٧٨٩ أذاع على جميع أقسام فرنسا دعوة لتنتخب ممثلين لها بالتصويت . وكان كل رجل فرنسى فى الطبقة الثالثة يزيد عمره على أربعة وعشرين عاما ويدفع أى ضريبة ، من حقه — بل أنه مأمور — بأن يدلى بصوته ، وكذلك جميع المهنيين ، ورجال الأعمال ، وأعضاء الطوائف الحرفية ، أى أن جميع العامة — باستثناء المعدمين وأفقر العمال — كان عليهم أن يدلوا بأصواتهم[٣٢] . واجتمع المرشحون الناجحون على هيئة لجنة انتخابية اختارت نائباً عن القسم . أما فى الطبقة الأولى (الأكليروس) فكان كل كاهن أو خورى ، وكل دير للرهبان أو الراهبات ، يدلى بصوته لاختيار ممثل فى الجمعية الانتخابية للقسم ، وكان رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، أعضاء فى تلك الجمعية بحكم وظائفهم ، واختارت الجمعية مندوباً فى مجلس الطبقات . أما فى الطبقة الثانية (الأشراف) فقد كان كل نبيل فوق الرابعة والعشرين تلقائياً عضواً فى الجمعية الإنتخابية التى اختارت مندوباً يمثل نبلاء قسمه . وفى باريس وحدها قصر حق التصويت على من يدفعون فرضة رؤس قدرها جنيهات أو أكثر ، وقد أسقط بذلك معظم أفراد الطبقة العاملة[٣٣] .

ودعت الحكومة كل جمعية انتخابية فى كل طبقة لوضع «كراسة بالشكاوى والمظالم» لإرشاد ممثلها . ولخصت كراسات الأقسام لكل طبقة فى كراسات إقليمية ، ثم قدمت هذه للملك ، كاملة أو مختصرة ، وأجمعت الكراسات كلها على إدانة الحكم المطلق ، والمطالبة بملكية دستورية تتقيد فيها سلطات الملك ووزرائه بالقانون وبمجلس منتخب على نطاق قومى يجتمع دورياً وله وحده حق تقرير الضرائب الجديدة واعتماد القوانين الجديدة . وطلب إلى جميع النواب تقريباً عدم الموافقة على اعتماد أموال للحكومة حتى تحصل الأمة على دستور كهذا . وأدانت جميع الطبقات عدم كفاية الحكومة فى شئون المال ، والمظالم المقترنة بالضرائب غير

المباشرة ، وشطط السلطة الملكية كما يتمثل فى أوامر القبض الملكية . وطالب الجميع بالمحاكمة وفق نظام المحلفين ، وبسرية الرسائل ، وبإصلاح القانون . ودعا الجميع للحرية ، ولكن على طريقتهم الخاصة : فالنبلاء لاستعادة السلطات التى كانت لهم قبل حكم ريشليو ، والأكليروس والبورجوازيون للتحرر من كل تدخل للدولة ، والفلاحون للتحرر من الضرائب الظالمة والرسوم الإقطاعية . وقبل الجميع من حيث المبدأ المساواة فى الضرائب على جميع أنواع الملكية . وأعرب الجميع عن الولاء للملك ، ولكن أحداً لم يذكر « الحق الإلهى » فى الحكم (٣٤) ، فقد كان هذا الحق بإجماع الآراء فى عداد الموتى .

واشترطت كراسات النبلاء أن تجتمع كل طبقة من الطبقات الثلاث فى مجلس الطبقات منفصلة وتصوت بوصفها طبقة متحدة . أما كراسات الاكليروس فقد رفضت التسامح الدينى ، وطلبت إلغاء الحقوق المدنية الممنوحة للبروتستنت مؤخراً . وطالبت بعض الكراسات بترك شطر أكبر من ضريبة العشور الأبرشية ، وبفتح المناصب فى السلم الكهنوتى أمام جميع القساوسة على السواء . وأسفت معظم الكراسات الكنسية على ما شاب العصر من فساد أخلاقى فى الفن والأدب والمسرح ، وعزت هذا التدهور إلى حرية النشر المفرطة ، وطالبت بقصر الأشراف على التعليم على الاكليروس الكاثلوليكى دون سواه .

أما كراسات الطبقة الثالثة فأعربت أكثر ما أعربت عن آراء الطبقة الوسطى والفلاحين الملاك . فطالبت بإلغاء الحقوق الإقطاعية ومكوس النقل ، وبفتح الطريق للمواهب لجميع الطبقات ولجميع المناصب . ونددت بثراء الكنيسة وتبطل الرهبان الغالى التكلفة . وافترحت إحدى الكراسات على الملك إن أراد تغطية العجز أن يبيع أراضى الاكليروس وإيجاراتهم ، واقترحت كراسة أخرى مصادرة جميع الأملاك الديرية (٣٥) . وشكت كراسات كثيرة من العبث المنكر الذى تحدثه بالمزارع حيوانات النبلاء ومطاردتهم لصيدهم . وطلبت التعليم المجانى للجميع ، وإصلاح المستشفيات والسجون ، والقضاء المبرم على القنية وتجارة الرقيق . وأكدت كراسة

نموذجية للفلاحين « أننا ركيزة العرش الرئيسية ، وسند الجيوش الصادق . . . إننا مصدر الثراء للآخرين ، بينما نظل فقراء »(٣٦) .

لقد كان انتخاب مجلس الطبقات هذا ، فى جملته ، لحظة نبيلة باعثة على الفخر فى تاريخ فرنسا . وكادت فرنسا البوربونيه ، ولو للحظة ، أن تصبح ديمقراطية ، على الأرجح بنسبة من السكان تدلى بأصواتها تفوق نسبة من يدلون بأصواتهم فى إنتخاب أمريكى يجرى اليوم . وكان انتخاباً عادلا ، لا يشوبه الخلل الذى قد يتوقع فى عملية بهذه الجدة ، وواضح أنه كان أقل فساداً من معظم الانتخابات التى أجريت فى ديمقراطيات أوربا اللاحقة (٣٧) . ولم يحدث قط من قبل ، على قدر علمنا ، أن أصدرت حكومة من الحكومات دعوة عريضة كهذه لشعبها لتحيطه علماً بالإجراءات ، ولتتعرف إلى شكاوى الشعب ورغباته ، وقد أتاحت هذه الكراسات فى جملتها للحكومة نظرة للأحوال فى فرنسا أشمل من أى نظرة أتيحت لها فى أى عهد قبل ذلك . فالآن امتلكت فرنسا ، إن كانت قد امتلكت فى أى عهد ، المواد المؤهلة لفن الحكم ، والآن اختارت خيرة رجالها بمحض حريتها من كل طبقة ، ليلتقوا بملك كان قد قام فعلا بمقدمات شجاعة للتغيير ، وملأ الأمل فرنسا كلها حين اتخذ هؤلاء الرجال القادمون من كل فج الدولة سمتهم إلى باريس وفرساى .

٥ — يدخل ميرابو

وكان أحدهم نبيلا انتخبه العامة عن إكس — أن — برفانس ومرسليا . وقد أصبح هذا الرجل ، أنوريه — جابرييل — فكتور ركيتى ، كونت ميرابو — الدميم الوجه الساحر الشخصية ، والذى تفرد بهذا الشرف الشاذ المزدوج ، علماً مسيطراً من أعلام الثورة منذ وصوله إلى باريس (أبريل ١٧٨٩ (حتى موته السابق لأوانه (١٧٩١) .

ولقد نوهنا من قبل بأبيه — فكتور ركيتى ، مركيز ميرابو — فزيوقراطيا و « صديقاً للإنسان » ، أى لكل إنسان عدا زوجته وأبنائه ، وقد وصف

فوفنارج « صديق الإنسان » هذا بأنه « ذو طبع نارى مكتئب ، أشد عتواً وتقلباً . . . من البحر ، يتسلط عليه نهم دائم للذة والمعرفة والمجـــد »(٣٨) . وقد اعترف المركيز بهذا كله ، وأضاف إليه أن « الفساد الخلقى طبيعة ثانية فيه » . وحين بلغ الثامنة والعشرين صمم على أن يكتشف إن كان ممكناً أن يكتفى بامرأة واحدة ، فطلب يد مارى دفيسان ، التى لم يرها قط ، ولكنها كانت الوريثة غير المنازعة لثروة كبيرة . وبعد أن تزوجها وجد أنها امرأة ساذجة رثة عاجزة ، ولكنها أنجبت له فى إحدى عشرة سنة أحد عشر طفلا ، تخطى الطفولة منهم خمسة . وفى ١٧٦٠ زج المركيز فى « الشاتو دفانسين » بتهمة الكتابات المهيجة ، ولكن أفرج عنه بعد أسبوع . وفى ١٧٦٢ هجرته وعادت إلى ألبها .

وشب ابنه البكر ، أونوريه — جابرييل — وسط هذه الدراما العائلية . وقد ماتت إحدى جدتيه مجنونة ، وتعرضت إحدى شقيقاته وأحد إخوته للجنون بين الحين والحين ، ومن المعجزات أن ينجو جابرييل نفسه من الجنون وهو يصارع الكارثة تلو الكارثة . وقد ولد وله سنان ، وكأنهما تحذير للعالم . وحين بلغ الثالثة أصيب بالجدرى الذى خلف فى وجهه ندوباً ونقراً كأنه ساحة قتال . وكان غلاماً شديد الحيوية ، مشاكساً ، عنيداً ، وكان أبوه ، الشديد الحيوة ، المشاكس ، العنيد ، يكثر من ضربه ، فربى فيه كراهية أبيه ، وسر المركيز أن يتخلص منه بإرساله حين بلغ الخامسة عشرة (١٧٦٤) إلى أكاديمية حربية فى باريس . وهناك تعلم جابرييل الرياضيات والألمانية والانجليزية ، وقرأ بنهم إذ تسلطت عليه رغبة عارمة فى الإتيان بجلائل الأعمال . وقرأ فولتير ففقد دينه ، وقرأ روسو فتعلم أن يتعاطف مع عامة الشعب ، وفى الجيش سرق خليلة قائده ، واشتبك فى مبارزة ، وشارك فى الغزو الفرنسى لكورسيكا ، وظفر بقدر من الثناء على بسالته أشعر أباه بحبه ولو لحظة .

وحين بلغ الثالثة والعشرين تزوج ابتغاء المال بصراحة من إميلى مارنياك ، وكانت تتوقع أن ترث ٥٠٠,٠٠٠ فرنك . فولدت لجابرييل ولداً ، ثم اتخذت عشيقاً ، واكتشف خيانتها ، وأخفى خيانته ، ثم غفر لها . وتشاجر

مع رجل يدعى فلنيف ، وحطم شمسية فوق ظهره ، فاتهم بتعمد القتل ، ورغبة فى تفادى القبض عليه حصل أبوه على أمر ملكى مختوم زج بمقتضاه جابرييل فى الشاتوديف ، القائم على جزيرة حيال مارسليا ، وطلب إلى زوجته أن تلحق به ، ولكنها رفضت ، وتبادلا رسائل فيها حنق متصاعد ، انتهت بأن أقرأها « الوداع إلى الأبد » (١٤ ديسمبر ١٧٧٤) .واستدفأ أثناء ذلك بمضاجعة زوجة مأمور السجن بين الحين والحين .

وفى مايو ١٧٧٥ نقل بمسعى أبيه إلى سجن أرخى فى الشاتودجو ، قرب بونتارلييه والحدود السويسرية . ودعاه سجانه المسيو دسان — مورى إلى الحفلة التى فيها بصوفى دروفيه ، الزوجة ذات التسعة عشر ربيعاً للمركيز دمونييه السبعينى . وقد وجدت ميرابو أكثر إشباعاً من زوجها ؛ صحيح أن وجهه كان منفراً ، وشعره صوفى القرام ، وأنفه ضخماً ، ولكن عينيه كانتا متقدتين ، وطبعه كان « ناريا » وكان فى استطاعته أن يغوى بحديثه أى امرأة . واستسلمت له صوفى كلية ، وفر من بونتارلييه ، ثم هرب إلى تونون فى إقليم سافوا ، وهناك أغرى ابنة عم له . وفى أغسطس ١٧٧٦ لحقت به صوفى فى فرير بسويسره لأن العيش بعيداً عنه كما قالت معناه « الموت ألف مرة كل يوم »(٣٩) . وأقسمت الآن « أما جابرييل أوالموت ! » واقترحت أن تشتغل ، لأن جابرييل كان مفلساً .

فصحبها إلى أمستردام حيث استخدمه مارك ريه ، ناشر كتب روسو ، مترجماً ، وعملت صوفى سكرتيرة له ، واشتغلت بتدريس الإيطالية ، وقد كتب عدة كتب صغيرة تحدث فى أحدها عن أبيه فقال « انه يعظ بالفضيلة ، والبر ، والقصد ، فى حين أنه أسوأ الأزواج ، وأقسى الآباء وأكثرهم إسرافاً »(٤٠) . ورأى ميرابو الأب فى هذا خروجاً على أصول اللياقة . فاتفق مع والدى صوفى على تدبير إعادة الزوجين من هولنده ، فقبض عليهما (١٤ مايو ١٧٧٧) وجىء بهما إلى باريس . وبعد أن فشلت صوفى فى محاولة الانتحار ، أرسلت إلى إصلاحية ، أما جابرييل الساخط فقد زج فى الشاتو دفانسين ، مقتفياً فى ذلك خطى أبيه وديدرو . وهناك ظل

يقضى فى السجن اثنين وأربعين شهراً . وبعد أن قضى فيه عامين سمح له بالكتب والورق والقلم والمداد ، فراح يبعث لصوفى برسائل ملؤها الإخلاص المشبوب . وفى ٧ يناير ١٧٧٨ ولدت بنتاً لعلها كانت ابنته وفى شهر يونيو نقلت الأم وطفلتها إلى دير فى جيان قرب أورليان .

والتمس ميرابو من أبيه أن يصفح عنه ويعمل على اطلاق سراحه . وقال متوسلا « دعنى » أرى الشمس ، دعنى أتنسم هواء أكثر حرية ، دعنى أرى وجه اخوانى البشر ! . اننى لا أبصر غير الجدران المظلمة . ابتاه سأموت من آلام التهاب الكلى ! » ولكى يخفف من شقائه ويكسب بعض المال لصوفى ، ويتقى الجنون ، ألف عدة كتب ، بعضها جنسى . وكان أهمها هو « الأوامر الملكية المختومة » الذى وصف مظالم القبض دون إذن والسجن دون محاكمة ، وطالب بإصلاح السجون والقانون فلما نشر هذا الكتيب فى ١٧٨٢ بلغ تأثر لويس السادس عشر به مبلغاً حمله على أن يأمر فى ١٧٨٤ بالإفراج عن جميع السجناء المعتقلين فى فانسين[٤٢] .

وقد ترفق سجانو ميرابو به ، وبعد ١٧٧٩ سمح له بالتمشى فى حدائق الشاتو ولقاء الزوار ، ووجد فى بعض زائريه منصرفات لطاقته الجنسية العارمة[٤٣] . ووافق أبوه على أن يعمل على الإفراج عنه إذا اعتذر ازوجته واستأنف معاشرتها ، لأن المركيز العجوز كان تواقاً لحفيد يواصل بقاء الأسرة . فكتب جابرييل إلى زوجته يطلب الصفح . وفى ١٣ ديسمبر ١٧٨٠ أطاق سراحه بكفالة أبيه ، الذى دعاه إلى قصر الأسرة فى لوبنيون ، وكانت له بعض العلاقات الغرامية فى باريس ، وزار صوفى فى ديرها ، والظاهر أنه أخبرها أنه ينوى العودة إلى زوجته . ثم مضى إلى لوبنيون ، وأبهج قلب أبيه . وتلقت صوفى مالا من زوجها ، وانتقلت إلى بيت قريب من الدير ، وانهمكت فى أعمال البر ، ووافقت على الزواج من كبتن سابق فى الخيالة . ولكنه مات قبل أن يزف إليها ، فانتحرت فى الغد (٩ سبتمبر ١٧٨٩)[٤٤] . أما زوجة ميرابو فقد رفضت لقاءه ، فأقام عليها دعوى تهمها فيها بهجرها له ، وخسر دعواه ، ولكنه أدهش الأصدقاء والأعداء

ببلاغه مرافعته التى ستغرقت خمس ساعات دفاعاً عن قضية يستحيل الدفاع عنها . وتبرأ منه أبوه ، فقاضاه ، وحصل منه على راتب قدره ثلاثة آلاف فرنك فى السنة ، وراح يقترض المال زيجيا حياة مترفة . وفى ١٧٨٤ اتخذ خليلة جديدة تدعى هنريت نيرا . واصطحبها فى رحلة إلى انجلتره وألمانيا (١٧٨٥ — ٨٧) . وفى الطريق كانت له مغامرات غرامية عارضة ، غفرتها له هنرينيت لأنه — كما قالت — « ما إن تتودد إليه امرأة أقل تودد حتى يلتهب لفوره »[٤٥] . والتقى بفردريك مرتين ، وعرف عن بروسيا ما يكفى لتأليف كتابه « فى الملكية البروسية » (١٧٨٨) (من مادة زوده بها ضابط بروسى) ، وقد أهدى الكتاب لأبيه ، الذى وصفه بأنه « مصنف ضخم لعامل هائج . « وكلفه كالون برسائل سرية عن الشئون الألمانية ، فأرسل منها سبعين أدهشت الوزير بإدراكها المرهف وأسلوبها القوى .

فلما عاد إلى باريس رأى أن سخط الشعب قارب الحماسة الثورية ، وفى رسالة إلى الوزير مونمورين حذر من نشوب الثورة ما لم يجتمع مجلس طبقات الأمة قبيل عام ١٧٨٦ « انى أسأل هل حسبتم حساب قوة الجوع المزلزلة إذا تفاعلت مع روح اليأس . انى أسأل من سيجرؤ على أن يكون مسئولا عن سلامة جميع من يلتفون حول العرش ، أجل ، بل سلامة الملك نفسه ؟ [٤٦] وقد طواه خضم هذا الهياج فاندفع فيه ووفق فى مصالحة هشة مع أبيه (الذى مات فى ١٧٨٩) . ثم رشح نفسه فى اكس — أن — بروفانس لمجلس طبقات الأمة ودعا نبلاء التقسم لاختياره ، فرفضوا ، فاتجه إلى الطبقة الثالثة ، التى رحبت به . وانبعث الآن من شرنقتين المحافظة واتخذ له أجنحة بوصفه ديمقراطياً « أن حق السيادة كامن فى الشعب وحده ، والملك لا يمكن أن يكون أكثر من القاضى الأول للشعب »[٤٧] . وقد أراد الاحتفاظ بالملكية ، إنما حماية للشعب من الارستقراطية ، ثم دعا بإلحاح أثناء ذلك إلى إعطاء حق التصويت لجميع الذكور البالغين[٤٨] . وفى خطاب موجه لمجلس طبقات إقليم بروفانس هدد الطبقات المميزة بإضراب عام : « حذار من أن تحتقروا هذا الشعب الذى ينتج كل شىء ، هذا الشعب الذى لا يحتاج إلا لفرض الجمود عليه حتى يصبح رهيباً جباراً »[٤٩] .

ثم اندلع شغب بسبب الخبز فى مارسليا (مارس ١٧٨٩) ، وأرسل أولو الأمر فى طلب ميرابو ليهدىء ثائرة الشعب لأنهم كانوا على بينة من شعبيته ، وتجمعت الجماهير فى حشد من ١٢٠,٠٠٠ للهتاف له[٥٠] . فنظم دورية لمنع حوادث العنف . وفى « بيان لشعب مارسليا » نصح العامة بالصبر حتى يتاح لمجلس طبقات الأمة الوقت للموازنة بين المنتجين الذين يريدون أسعاراً عالية والمستهلكين الذين يريدون أسعاراً منخفضة . وأطاعه القائمون بالشغب . وبقوة الإقناع ذاتها هدأ تمرداً نشب فى إكس . وانتخبته إكس ومرسليا نائباً عنهما ، فشكر الناخبين ، وقرر أن يمثل إكس . وفى أبريل ١٧٨٩ اتخذ سمته إلى باريس ومجلس الطبقات .

٦ — التجربة الأخيرة للدراما : ١٧٨٩

واخترق بلداً يواجه المجاعة ويجرب الثورة . ففى ربيع عام ١٧٨٩ نشب فى أقسام عديدة تمرد متكرر على الضرائب وغلاء الخبز . من ذلك أن الجماهير فى ليون أغاروا على مكاتب جابى الضرائب وأتلفوا سجلاته . وفى آجده ، قرب مونبلييه ، هدد الشعب بعمليات سلب ونهب شاملة ما لم تخفض أسعار السلع ، ومنعت القرى التى خشيت عجز الغلال عنوة تصديرها من الأقسام . وتحدث بعض الفلاحين عن احراق جميع القصور الريفية وقتل أمراء الإقطاع (مايو ١٧٨٩)[٥١] . وفى مونليرى قادت النساء حشداً من الغوغاء فى حملة على مخازن الغلال والمخابز حين نمى إليهن أن سعر الخبز قد زيد ، واستولين على كل ما وصلت إليه أيديهن من الخبز والدقيق . ومثل هذا حدث فى بريه — سير — سين» وبانول ، وأميان ، وفى كل مكان بفرنسا تقريباً . وفى المدينة تلو المدينة أثار الخطباء الشعب بأنبائهم بأن الملك أجل دفع الضرائب كلها[٥٢] . وسرى خلال إقليم بروفانس فى شهرى مارس وأبريل نبأ يقول ان « خير الملوك يريد المساواة فى الضرائب ، وألا يكون بعد اليوم أساقفة ، ولا إقطاعيون ، ولا عشور ، ولا مكوس ، ولا ألقاب ، ولا امتيازات»[٥٣] . وبعد أول أبريل ١٧٨٩ كف الناس عن دفع الرسوم الإقطاعية ، وهكذا لم يكن نزول النبلاء « التطوعى » عن

حقوقهم الإقطاعية فى ٤ أغسطس عملا من أعمال التضحية ، بل إقراراً بالأمر الواقع .

وازداد الانفعال والإثارة فى باريس كل يوم تقريباً باقتراب موعد انعقاد مجلس طبقات الأمة . فتدفقت النشرات من المطابع ورفع الخطباء عقائرهم فى المقاهى والأندية وصدرت أشهر وأقوى نشرة فى التاريخ بأسره فى يناير ١٧٨٩ ، بقلم رجل من أحرار الفكر هو الأبيه إيمانويل — جوزف سييس ، الوكيل العام لأسقفية شارتر . وكان شامفور قد كتب متسائلا « ما الطبقة الثالثة ؟ — إنها كل شىء . وماذا تملك ؟ لا شىء » . فصاغ سييس هذا « الأبجرام » المتفجر عنواناً جذاباً وحوله إلى ثلاثة أسئلة سرعان ما رددتها نصف فرنسا :

« ما الطبقة الثالثة ؟ كل شىء

ماذا كانت إلى اليوم فى النظام السياسى ؟ لا شىء .

ماذا تطلب ؟ أن تصبح شيئاً [٥٤] .

وذكر سييس أنه من بين سكان فرنسا البالغين ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، ينتمى إلى الطبقة الثالثة — العامانية المجردة من الإلقاب — على الأقل ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ وهذا معناه فى حقيقة الأمر أن الطبقة الثالثة هى الأمة . فإذا أبت الطبقتان الأخريان الجلوس معها فى مجلس الطبقات ، كان لها العذر فى أن تؤلف بنفسها « الجمعية الوطنية » . وقد حفظ التاريخ تلك العبارة فيما حفظ .

على أن الجوع كان أبلغ حتى من الكلام . فتقاطر الشحاذون والمجرمون على مراكز الإغاثة كلما أقامتها فى باريس الحفكومة والكهنة والأغنياء ، وافدين من داخل البلاد ليأكلوا ويغامروا بفقرهم فى أفعال يائسة . وكانت الجماهير هنا وهناك تنفذ إرادتها بنفسها دون اعتداد بالقانون ، فهددت بشنق أى تاجر يخفى الغلال أو يغالى فى سعرها على أقرب عمود نور ، وكثيراً

ما اعترضت قوافل الغلال ونهبتها قبل أن تستطيع هذه القوافل الوصول إلى السوق ؛ وكانت أحياناً تطبق على الأسواق بالغوغاء وتستولى عنوة ودون دفع الثمن على الغلة التى أتى بها الفلاحون ليبيعوها(٥٥) . وفى ٢٣ أبريل استصدر نكير من المجلس الملكى مرسوماً يخول للقضاه والشرطة جرد مخازن الغلال الخاصة وإلزامها حيثما عز الخبز بإرسال غلالها للسوق ، ولكن هذا الأمر نفذ فى تراخ . كذلك كانت صورة باريس فى ربيع ذلك العام .

فى هذه الجماهير الغاضبة من الدهماء تبين الدوق أورليان أداة قد تحقق له مآربه . وكان الحفيد البعيد لفليب أورليان الذى كان وصياً على عرش فرنسا (١٧١٥ — ٢٣) . وقد ولد فى ١٧٤٧ ، ولقب بدوق شارتر فى الخامسة من عمره ، ثم تزوج فى الثانية والعشرين بلويز — مارى دبوربون بنتيفر ، التى جعلته ثروتها أغنى رجل فى فرنسا (٥٦) . وفى ١٧٨٥ ورث لقب دوق أورليان ، وبعد ١٧٨٩ ، وبفضل دفاعه عن القضايا الشعبية ، عرف بفليب إيجالتيه (المساواه) . وقد رأيناه يتحدى الملك فى البرلمان وينفى إلى فيلليه — كوربه . فلما عاد بعد قليل إلى باريس صمم على أن يجعل من نفسه معبود الشعب ، مؤملا أن يختار خلفاً لابن عمه لويس السادس عشر أن اعتزل أو خلع هذا الملك الذى أزعجته الخطوب . فسخا فى عطائه للشعب ، وأوصى بتأمين أملاك الكنيسة (٥٧) ، وفتح للجماهير حديقة البالية — رويال وبعض حجراته فى قلب باريس ، وكانت له شمائل الارستقراطى الجواد وأخلاق سلفه الوصى على العرش . وقامت مربية أبنائه مدام جنليس ، همزة وصل بينه وبين ميرابو ، وكوندورسيه ، ولافاييت ، وتاليران ، ولافوزييه ، وفولنى ، وسييس ، وديمولان . وقد بذل له زملاؤه من الماسون الأحرار التأييد الكبير (٥٨) . وقام الروائى شودير لو دلاكلو ، وكان سكرتيره ، بدور العميل له فى تنظيم المظاهرات والانتفاضات الشعبية . وفى الحدائق والمقاهى وبيوت القمار ، والمواخير القريبة من قصره كان كتاب النشرات يتبادلون الأفكار ويضعون الخطط ، هنا شارك آلاف الناس من جميع الطبقات فى اضطرابات الساعة وانفعالاتها ، وأصبح البالية — رويال ، بوصفه اسماً على هذا المركب كله ، قلب الثورة النابض .

ويزعمون ، وهو زعم محتمل ولكنه ليس مؤكداً ، أن مال الدوق ، ونشاط شودرلو دلا كلو ، لعبا دوراً فى تنظيم الهجوم على مصنع ريفيون فى شارع سانت ــ أنطوان . أما ريفيون هذا فكان يتزعم ثورته الخاصة : يحل محل الرسوم والنسجيات الجدارية ورقاً رقيقا رسمه فنانون بتقنية طورها بنفسه ، وينتج ما وصفه حجة انجليزى بأنه « أجمل ما صنع على الإطلاق من ورق الحائط بغير جدال »[٥٩] . وقد استخدم مصنعه ثلاثمائة عامل ، كان الحد الأدنى لأجر العامل منهم خمسة وعشرين سوا (١,٥٦ دولاراً ؟) فى اليوم . وفى اجتماع لجمعية الناخبين فى حى سانت ــ مارجريت نشب نزاع بين ناخبى الطبقة الوسطى والعمال ، وخيف أو تخفض الأجور[٦١] . وسرى نبأ كاذب بأن ريفيون قال « ان العامل الذى له زوجة وأولاد فى استطاعته أن يعيش على خمسة عشر سوا فى اليوم » . وفى ٢٧ أبريل احتشد جمع أمام منزل صاحب المصنع ، فلما لم يجدوه أحرقوا دمية تمثله . وفى اليوم الثامن والعشرين ، أغار الغوغاء بعد أن عززوا قوتهم وتسلحوا على بيته ، ونهبوه ، وأشعلوا النار فى أثاثه ، وشربوا الخمر من مخزن خموره ، واستولوا على النقود والآنية الفضية . ثم انتقل القائمون بالشغب إلى المصنع ونهبوه . وجرد الجنود لقتالهم ، فدافعوط عن أنفسهم فى معركة اتصلت عدة ساعات ، لقى فيها اثنا عشر جندياً ونيف ومائتا مشاغب مصرعهم . وأغلق ريفيون مصنعه وشد رحاله إلى انجلتره .

كذلك كان مزاج باريس حين وصل النواب المنتخبون ومناوبوهم لحضور مجلس طبقات الأمة فى فرساى .

٧ ــ مجلس طبقات الأمة : ١٧٨٩

فى ٤ مايو تحرك النواب فى موكب مهيب للاستماع إلى القداس فى كنيسة القديس لويس : يتقدمهم كهنة فرساى ، ويليهم ممثلو الطبقة الثالثة فى ثياب سوداء ، ثم نواب الأشراف فى ثيابهم الزاهية وقبعاتهم المزينة بالريش ، ثم النواب الكنسيون ، ثم الملك والملكة يحيط بهما أفراد الأسرة المالكة . وازدحم أهل المدينة فى الشوارع والشرفات وأسطح المنازل ، وصفقوا

لممثلى العامة ، وللملك ولدوق أورليان ، واستقبلوا بالصمت النبلاء ، ورجال الاكليروس ، والملكة ، وكان كل إنسان (عدا الملكة) سعيداً ذلك اليوم ، لأن الأمل الذي تطلع إليه الكثيرون قد تحقق . وبكى الكثيرون ، من بين النبلاء ، لمرأى الأمة المنقسمة وقد بدت متحدة .

وفى ٥ مايو اجتمع النواب فى « قاعة الملاهى الصغيره الضخمة » الواقعة على نحو أربعمائة ياردة من القصر الملكى . وبلغ عددهم ٦٢١ من العامة ، و ٣٠٨ من الاكليروس ، و ٢٨٥ من النبلاء (وفيهم عشرون من نبلاء الرداء) . أما النواب الكنسيون فكان نحو ثلثيهم من أصل شعبى ، وقد اختار كثيرون من هؤلاء الوقوف فى صف العامة . وكان نصف نواب الطبقة الثالثة تقريباً من المحامين ، وخمسة فى المائة من أرباب المهن ، وثلاثة عشر فى المائة من رجال الأعمال ، وثمانية فى المائة يمثلون الفلاحين[٦٣] . ومن رجال الاكليروس أسقف أوتان ، شارل — موريس دتاليران — بيريجور ، الذى وصفه ميرابو وصفاً سبق به عبارة نابليون « الوحل فى جوارب حريرية » فقال عنه « رجل خسيس ، جشع ، سافل ، دساس ، لايشتهى غير الرحل والمال ، يبيع روحه فى سبيل المال ، وهو إن فعل كان على حق ، لأنه عندها سيأخذ الذهب بدل كومة من الروث »[٦٤] ، ولم يكن فى هذا الوصف إنصاف لذكاء تاليران الطيع . وكان بين النبلاء عدة رجال دعوا إلى الإصلاحات الجوهرية : لافاييت ، وكوندورسيه ، ولالى — تولندال ، وفيكونت نواى ، وأدواق أورليان ، وايجيون ، ولا روشفوكو — ليانكور . وقد انضم معظمهم إلى سييس ، وميرابو ، وغيرهم من نواب الطبقة الثالثة فى جمعية الثلاثين» التى قامت بدور الجماعة المنظمة للإجراءات اللبرالية » ومن أبرز نواب الطبقة الثالثة ميرابو ، وسييس ، ومونييه ، وبارناف ، والفاكى جان بابى ، ومكسمليان روبسبير . وكان هذا الجمع فى مجموعه أبرز تجمع سياسى فى التاريخ الفرنسى ، وربما فى التاريخ الحديث بأسره . وتطلعت النفوس الكريمة فى طول أوربا وعرضها لهذا الحشد عساه أن يرفع لواء ينضوى تحته المظلومون فى كل أمة .

وافتتح الملك الجلسة الأولى بخطاب موجز اعترف فيه صراحة بما تعانيه حكومته من كرب مالى نسبه إلى « حرب غالية التكلفة ولكنها شريفة » وطلب « زيادة فى الضرائب » وأبدى الأسف على « الرغبة المغالية فى التجديد » . ثم تبعه نكير بخطاب استغرق ثلاث ساعات واعترف فيه بعجز بلغ ٥٦,١٥٠,٠٠٠ جنيه (وحقيقة الأمر أنه بلغ ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠) وطلب الموافقة على قرض قدره ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . وتململ النواب من الإحصاءات المرهقة للذهن ، وكان أكثرهم يتوقع من الوزير اللبرالى أن يبسط برنامجاً للإصلاح .

ثم بدأ صراع الطبقات فى الغد ، حين انفرد كل من طبقة النبلاء والاكليروس بقاعة منفصلة وشق جمهور الشعب الآن طريقه عنوة إلى قاعة الملاهى الصغيرة ، وسرعان ما أخذ يؤثر فى أصوات النواب بأعرابه القوى — المنظم عادة — عن الاستحسان أو الاعتراض . ورفضت الطبقة الثالثة أن تعترف بنفسها هيئة منفصلة ، وانتظرت فى تصميم أن تنضم إليها الطبقتان الأخريان ويتم التصويت عضواً عضواً . ورد النبلاء بأن التصويت بالطبقات — أى بصوت لكل طبقة — جزء من الدستور الملكى لا يمكن تغييره « ذلك أن إدماج الطبقات الثلاث فى طبقة واحدة والسماح بالتصويت الفردى ، فى جمعية تؤلف الطبقة الثالثة الآن نصف مجموعها وفى استطاعتها دون عناء أن تكسب التأييد من صغار الاكليرزس هذا كله معناه تسليم عقل فرنسا وخلقها لمجرد الكثرة العددية والإرادة البورجوازية . أما مندوبو الاكليروس المنقسمون بين محافظين وأحرار ، فلم يتخذوا موقفاً من الطرفين ، منتظرين أن تهديهم الأحداث إلى أفضل طريق . ومضى شهر على هذه الحال .

وكان سعر الخبز أثناء ذلك يواصل ارتفاعه برغم محاولات نكير لضبطه ، وخطر العنف الجماهيرى يتزايد . وتدفق فيض من النشرات ، فكتب آرثر ينج فى ٩ يونيو يقول : « ان الحركة التجارية المتزايدة الآن فى حوانيت باريس التى تبيع النشرات لاتصدق . ولقد ذهبت إلى الباليه رويال لأرى

ما جد نشره ولأحصل على قائمة بكل ما نشر ووجدت أن كل ساعة تلد جديداً . فقد صدر من النشرات اليوم ثلاث عشرة ، وأمس ست عشرة ، وفى الأسبوع الماضى اثنتان وتسعون . . وتسع عشرة من عشرين من هذه النشرات يناصر الحرية ، ويناوىء الاكليروس والنبلاء عادة . . . ولايصدر أى رد عليه »(٦٥) .

وفى ١٠ يونيو أوفد نواب الطبقة الثالثة لجنة إلى النبلاء والاكليروس تكرر دعوتهم إلى اجتماع موحد ، وتصرح بأنه إذا واصلت الطبقتان الاجتماع منفصلتين فإن الطبقة الثالثة ستأخذ فى التشريع الأمة بدونهم . ووقع التصدع فى صراع الإرادات الجماعية فى ١٤ يونيو ، حين انضم تسعة من كهنة الابرشيات إلى نواب العامة . فى ذلك اليوم أنتخبت الطبقة الثالثة ، بأى الابرشيات إلى نواب العامة . فى ذلك اليوم أنتخبت الطبقة الثالثة ، بأبى رئيساً لها ، ووضعت لنفسها نظاماً للمناقشة والتشريع . وفى اليوم الخامس عشر اقترح سييس أن يطلق النواب المجتمعون فى قاعة الملاهى الصغيرة — الذين يمثلون ستة وتسعين فى المائة من الأمة — على أنفسهم اسم « جمعية نواب الأمة الفرنسية المعترف بهم والثابتة صحة عضويتهم . ورأى ميرابو أن العبارة فضفاضة ولا بد أن الملك سيرفضها . وبدلا من أن يتراجع سييس ، بسط الإسم المقترح فجعله «الجمعية الوطنية » ، وكذلك تمت الموافقة على الإسم الجديد بأغلبية ٤٩١ مقابل ٨٩ صوتاً (٦٦) . وقد غير هذا الإعلان الملكية المطلقة تلقائياً إلى ملكية مقيدة ، وأنهى السلطات التى امتازت بها الطبقات العليا ، وشكل — من الناحية السياسية — بداية الثورة .

ولكن هل يقبل الملك هذا الغض من سلطته ؟ ولكى تعطفه الجمعية الوطنية للقبول قررت أن جميع الضرائب القائمة ينبغى دفعها كالسابق إلى أن تحل الجمعية ، وبعدها لا تدفع ضرائب إلا ما أذنت به الجمعية ؛ وأن الجمعية ستنظر بأسرع ما تستطيع فى أسباب عجز الخبز وعلاجه ؛ وأنها بعد قبول دستور جديد ستتكفل بديون الدولة وتوافق على سدادها ، وقد استهدف أحد هذه القرارات تهدئة القائمين بالمغب ، وسعى آخر إلى

كسب تأييد حاملى السندات الحكومية ، وقد وضعت كلها بمهارة لتقلل من مقاومة الملك .

واستشار لويس مجلسه . فحذره نكير من أن مجلس الطبقات سينهار ما لم تزعن الطبقتان المميزتان ، وأن الضرائب لن تدفع ، وأن الحكومة ستصبح مفلسة لا حول لها ولا قوة . واعترض وزراء آخرون بأن التصويت الفردى سيكون معناه دكتاتورية الطبقة الثالثة وإصابة طبقة النبلاء بالعجز السياسى . وقرر لويس أن يقاوم الجمعية الوطنية لأنه شعر أن عرشه يعتمد على النبلاء والأكليروس . فأعلن أنه سيلقى خطاباً على مجلس الطبقات فى ٢٣ يونيو . وقدم نكير استقالته بعد أن هزم . ولكن الملك أقنعه بالبقاء لعلمه بأن الشعب سيقاوم خطوة كهذه .

واقتضت « الجلسة الملكية » المقررة تجهيز قاعة الملاهى الصغيرة بترتيبات مادية جديدة فأرسلت الأوامر بإجراء هذه الترتيبات إلى مهرة صناع القصر دون إشعار الجمعية . فلما حاول نواب الطبقة الثالثة دخول القاعة فى ٢٠ يونيو وجدوا أبوابها مغلقة وداخلها مشغولا بالصناع . واعتقد النواب أن الملك يخطط لطردهم ، فانتقلوا إلى ملعب للتنس مجاور (وصالة ملعب التنس وأقسموا يميناً صنعت التاريخ .

« حيث أن الجمعية الوطنية دعيت لوضع دستور المملكة ، ولإحداث التجديد فى النظام العام ، ولصيانة المبادىء الصحيحة للنظام الملكى ، وحيث أنه ما من شىء يقوى على منعها من مواصلة مداولاتها فى أى مكان تضطر إلى الاجتماع فيه ؛ وأخيراً ، بما أنه حيثما اجتمع أعضاؤها فهناك تكون الجمعية الوطنية ، لذلك تقرر الجمعية أن يقسم جميع أعضائها يميناً مغلظة بألا يتفرقوا ، وأن يعاودوا الاجتماع كلما دعت الظروف ، حتى يستقر حال المملكة ، ويرسى على أسس مكيفة ، وأنه بعد حلف اليمين المذكورة سيصدق جميع الأعضاء ، وكل منهم بمفرده ، على هذا القرار الثابت بالتوقع عليه»[٦٧] .

وقد وقع جميع النواب الحاضرين وعددهم ٥٥٧ نائباً وعشرون مناوباً إلا اثنين ، ثم وقع فى تاريخ لاحق خمسة وخمسون أخر وخمسة قساوسة . فلما

أن ترامى نبأ هذه الأحداث إلى باريس احتشد جمع غاضب حول البالية — رويال وأقسموا على الدفاع عن الجمعية الوطنية أيا كان الثمن . وفى فرساى بات من الخطر على أى شريف أو أسقف أن يظهر فى الشوارع ، وقد لقى عدد منهم معاملة خشنة ، ولم ينج رئيس أساقفة باريس بجلده إلا حين وعد بأن ينضم إلى الجمعية . وفى ٢٢ يونيو اجتمع النواب الذين أقسموا اليمين فى كنيسة سان لوى ، وهناك انضم إليهم بعض النبلاء و ١٤٩ من النواب الكنسيين البالغ عددهم ٣٠٨ .

وفى ٢٣ يونيو اجتمع نواب الطبقات الثلاث فى قاعة الملاهى الصغيرة ليستمعوا إلى الملك . وطوق الجنود القاعة . وتخلف نكير عن الحضور مع الحاشية الملكية على نحو واضح . وتكلم لويس فأوجز ، ثم أناب وزيراً فى قراءة قراره . وقد رفض القرار دعوى النواب الذين أعلنوا أنفسهم جمعية وطنية باعتبارها غير قانونية وباطلة . وسمح باجتماع موحد للطبقات الثلاث ، وبالتصويت الفردى على المسائل التى لاتؤثر فى هيكل فرنسا الطبقى ، ولكن يحظر أى عمل يمس « الحقوق القديمة والدستورية . . . للملكية ، أو الامتيازات التشريفية . . . للطبقتين الأوليين» ، أما الأمور المتصلة بالدين أو الكنيسة فلا بد من أن يوافق عليها الاكليروس . وسمح الملك لمجلس الطبقات بحق الاعتراض على الضرائب والقروض الجديدة ، ووعد بالمساواة فى فرض الضرائب إذا وافقت عليها الطبقتان المميزتان ، وعرض أن يتلقى توصيات بالإصلاح . وينشىء مجالس اقليمية يكون التصويت فيها فردياً . ووافق على إنهاء السخرة ، والأوامر الملكية المختومة ، والمكوس على التجارة الداخلية ، وكل آثار ألقنية فى فرنسا . ثم ختم الجلسة بمظهر وجيز للسلطة :

« لو أنكم تركتمونى وحدى فى هذه المغامرة الكبرى فسأعمل وحيداً لرفاهية شعبى . . . وسوف أعد نفسى دون سواى الممثل الحقيقى لهم . . . ولن تصبح خطة من خططكم أو اجراء من اجراءاتكم قانوناً ما لم أوافق عليه صراحة . . . وانى آمركم بالتفرق فوراً ، وبمضى كل نائب إلى قاعة طبقته صباح غد لتستأنفوا مناقشاتكم »[٦٨] .

فلما انصرف الملك رحل معظم النبلاء وقلة من الاكليروس . وأعلن المركيز بريزيه ، كبير التشريفات ، على النواب الذين بقوا أن الملك يريد الجميع أن يبرحوا القاعة . ورد ميرابو رداً مشهوراً : « سيدى ... ليس لك هنا مكان ولا صوت ولا حق فى الكلام ... فإذا كنت قد كلفت بإرغامنا على مبارحة هذه القاعة ، فلا بد لك من طلب الأوامر باستعمال القوة ، ... لأننا لن نبرح أماكننا إلا على أسنة الرماح»[٦٩] . وظاهرت هذا التصريح صيحة هتف بها الجميع « هذه إرادة الجمعية » فانسحب بريزيه ، وصدرت الأوامر للجند المحليين بإخلاء القاعة ، ولكن بعض النبلاء الأحرار أقنعوهم بالا يتخذوا أى اجراء . فلما أنبىء الملك بالموقف قال « تبأ لهم لهم ، فليمكثوا إذن »[٧٠] .

وفى ٢٤ يونيو كتب ينج فى يوميته : « ان الغليان فى باريس لا يمكن تصوره ، فقد كان عشرة آلاف شخص طوال اليوم فى الباليه رويال ... والاجتماعات المستمرة هناك تتصل وتبلغ من التهور . وسورة الحرية درجة لاتكاد تصدق »[٧١] . وعجزت السلطات البلدية عن حفظ النظام ، لأنها لم تستطع الاعتماد على « الحرس الفرنسيين» المحليين ؛ ذلك أن كثيرين من هؤلاء كان لهم أقرباء شرحوا لهم قضية الشعب ، وتآخى بعض هؤلاء الجند مع الحشد المحيط بالباليه — رويال ؛ وفى فوج فى باريس كانت هناك جمعية سرية أقسمت ألا تطيع أوامر مناوئة للجمعية الوطنية . وفى ٢٥ يونيو اجتمع الرجال الذين انتخبوا من قبل نواب الطبقة الثالثة عن باريس ، وعدد هؤلاء الرجال ٤٠٧ — وأحلوا أنفسهم محل الحكومة الملكية للعاصمة ، فأختاروا مجلساً بلدياً جديداً ، كله تقريباً من الطبقة الوسطى ، وترك لهم المجلس القديم مهمة حماية الحباة والأملاك . فى ذلك اليوم نفسه انتقل سبعة وأربعون نبيلا يتقدمهم دون أورليان إلى قاعة الملاهى الصغرى . وبدا أن انتصار الجمعية أصبح الآن أكيداً ، وأن القوة وحدها هى التى تستطيع زعزعته .

وفى ٢٦ يونيو ، وبرغم معارضة نكير ، أخبر الأعضاء المحافظون فى الوزارة الملك أن الجنود المحليين فى فرساى وباريس لا يمكن بعد الآن الركون

إلى طاعتهم الأوامر ، وأقنعوه بأن يرسل فى طلب ستة أفواج من الأقاليم . وفى السابع والعشرين ، وتحولا إلى نصيحة نكير ، أمر لويس وفود النبلاء والاكليروس بالانضمام إلى باقى النواب . ففعلوا ، ولكن النبلاء أبو المشاركة فى التصويت بحجة أن تفويضهم عن دوائرهم الانتخابية يمنعهم من التصويت الفردى فى مجلس الطبقات . وخلال الأيام الثلاثين التالية عاد أكثرهم إلى ضياعهم .

وفى أول يوليو استدعى الملك إلى باريس عشرة أفواج ، معظمهم من الألمان والسويسريين . وفى الأسابيع الأولى من يوليو احتل ستة آلاف جندى بقيادة المرشال برولى فرساى ، واتخذ عشرة آلاف آخر بقيادة البارون بزينفال مواقعهم حول باريس ، لا سيما فى الشان دمارس . واعتقدت الجمعية والشعب أن الملك يخطط لتفريقهم أو تخويفهم . وبلغ الخوف من القبض ببعض النواب مبلغاً جعلهم يبيتون فى قاعة الملاهى الصغرى بدلا من العودة إلى بيوتهم ليلا[٧٢] .

فى جو الإرهاب هذا عينت الجمعية لجنة لوضع مخططات الدستور جديد . وقدمت اللجنة للجمعية تقريراً تمهيدياً فى ٩ يوليو ، ومن ذلك اليوم أطلق النواب على أنفسهم اسم « الجمعية التأسيسية الوطنية » . وكان الميل السائد بين الأعضاء فى جانب الملكية الدستورية . وكان من رأى ميرابو المطالبة بـ « حكومة شبيهة بحكومة انجلتره بوجه عام » تكون فيها الجمعية الهيئة التشريعية ، ولكنه واصل فى السنتين اللتين أفسحتا له فى أجله الإلحاح على الاحتفاظ بملك لفرنسا . وأثنى على لويس السادس عشر لما أتصف به من طيبة قلب وسماحة مقصد يشوش عليهما أحياناً مشيروه قصار النظر ، ثم تساءل :

« هل درس هؤلاء الرجال ، فى تاريخ أى شعب من الشعوب ، كيف تبدأ الثورات وكيف تنفذ ؟ وهل لاحظوا بأى سلسلة رهيبة من الظروف يكره أعقل الرجال على إتيان أفعال تتجاوز كثيراً حدود الاعتدال ، وبأى دوافع مخيفة يقذف بشعب غاضب إلى ألوان من الشطط لو فكروا فيها مجرد تفكير لارتعدت فرائصهم فرقا ؟ »[٧٣] .

وخامرت الجمعية الشك فى أن ميرابو مأجور من الملك أو الملكة ليدافع عن الملكية ، ولكنها أساساً اتبعت نصيحته . وأحس النواب ، الذين كان العنصر السائد فيهم الآن رجالا من الطبقة الوسطى ، أن جماهير الشعب أخذت تصبح عسيرة القياد إلى حد خطر ، وأن السبيل الوحيد للحيلولة دون التحلل الشامل للنظام الاجتماعى هو الإبقاء فترة على الهيكل التنفيذى الراهن للدولة .

على أنهم لم يشعروا بمثل هذا الانعطاف نحو الملكة . فقد علم أنها شاركت إيجابياً فى تأييد الحزب المحافظ فى مجلس الملك ، وأنها تمارس سلطة سياسية تفوق كفايتها كثيراً . وكانت خلال هذه الأشهر الحرجة قد تجلدت لتكل ربما نال من أى قدرة أوتيتها على الحكم الهادىء المتعقل. ذلك أن ابنها البكر ، ولى العهد لويس ، كان شديد المعاناة من الكساح واعوجاج العمود الفقرى إلى درجة أعجزته عن المشى بغير معونة(٧٤) . وفى ٤ يونيو مات . ولم تعد مارى أنطوانيت التى حطمها الحزن والخوف تلك المرأة الفاتنة التى كانت تمرح طوال سنى الحكم الأولى . وباتت وجنتاها شاحبتين نحيلتين ، وأخذ الشيب يتسلل إلى شعرها ، وشاب الحزن بسماتها وهى تذكر أياماً أسعد ، ثم أرق مضجعها وعيها بحشود الدهماء تلعن اسمها فى باريس وتحمى الجمعية فى فرساى وترهبها .

وفى ٨ يوليو وافقت الجمعية على اقتراح لميرابو يطلب إلى الملك أن ينقل من فرساى جنود الإقليميين الذين جعلوا من حدائق لنوتر معسكراً مسلحاً . ورد لويس بأنه ليس هناك أذى مقصود بالجمعية ، ولكن فى ١١ يوليو أفصح عن سطوته بإقالته نكير وأمره بمغادرة باريس فوراً . تقول مدام دستال مستحضرة ذلك الحدث « وتقاطرت باريس كلها لتزوره فى الساعات الأربع والعشرين التى سمح له بها للاستعداد لرحلته . . . وأحال الرأى العام عاره انتصاراً »(٧٥) . ثم رحل هو وأسرته فى هدوء إلى الأراضى المنخفضة . أما الذين أيدوه فى الوزارة فأقيلوا معه . وفى ١٢ يوليو ، وفى استسلام كامل لدعاة استخدام القوة ، عين لويس صديق الملكة ، البارون دبروتوى ، خلفاً لنكير ، وعين دبرولى وزيراً للحربية . وبدا أن الجمعية وثورتها الوليدة مقضى عليهما قضاء مبرما .

ولكن الإنقاذ جاءهما من شعب باريس .

٨ — إلى الباستيل

كانت عوامل كثيرة تحمل الجماهير على الانتقال من الغليان إلى مرحلة العمل . فقد كان سعر الخبز قضية متيرة لحفيظة ربات البيوت ، وانتشرت الشبهة فى أن بعض تجار الجملة يحبسون الغلال عن السوق طمعاً فى أسعار أعلى حتى مما وصلت إليه(٧٦) . وأرسلت السلطات البلدية الجديدة الجند لحماية المخابز مخافة أن يفضى الجوع إلى النهب العشوائى . وكانت القضية التى تؤرق الباريسيين علمهم بأن الأفواج التى فى خارج المدينة ، والتى لم يتسن بعد كسب تأييدها لقضية الشعب ، تهدد الجمعية والثورة . وقد بلغ غضب الجماهير وخوفهم أثر سقوط نكير المفاجىء — وهو الرجل الوحيد فى الحكومة الذى كان الشعب قد وثق به — نقطة كفت عندها كلمة واحدة لتثير رداً عنيفاً . فى ١٢ يوليو وثب كامى ديمولان ، وكان أحد خريجى مدارس اليسوعيين ولكنه أصبح الآن محامياً متطرفاً فى التاسعة والعشرين من عمره ، فوق مائدة خارج « الكافية دافوا » على مقربة من البالية — رويال وندد بأقالة نكير باعتبارها خذلاناً للشعب ، وصاح « إن الألمان (الجند) فى الشان دمارس سيدخلون باريس الليلة ليذبحوا سكانها ! » ثم لوح بطبنجة وسيف وهتف « إلى السلاح ! »(٧٧) . وللتو تبعه فريق من السامعين إلى ميدان فاندوم يحملون تماثيل نصفية لنكير والدوق أورليان ، وهناك أكرههم بعض الجند على الفرار ، ثم تجمع فى المساء حشد فى حدائق التويلرى ، فهاجمهم فوج من الجند الألمان ، فقاوموهم بالقوارير والحجارة ، فأطلق الجنود النار عليهم وجرحوا كثيرين ، وبعد أن تفرقوا عادوا إلى التجمع فى الأوتيل دفيل ، وشقوا طريقهم إليه عنوة ، واستولوا على ما وجدوه من سلاح . وانضم الشحاذون والمجرمون إلى القائمين بالشغب ، ثم انقض الجميع على عدة بيوت ونهبوها .

وفى ١٣ يوليو تجمع الحشد مرة أخرى ، ودخلوا دير سان — لازار ، واستولوا على مخزونه من الغلال وحملوه إلى السوق فى لى هال ، وفتح

حشد آخر سجن لا فورس وأطلق سراح السجناء وكان أكثرهم من المدنيين وراح أفراد الشعب يفتشون عن البنادق فى كل مكان ، فلما لم يجدوا منها إلا القليل ، صنعوا خمسين ألف حربة (٧٨) . وخافت الطبقات الوسطى فى باريس على بيوتها وممتلكاتها ، فألفت مليشيا خاصة بها وسلحتها ، وفى الوقت نفسه واصل الأغنياء تشجيع الجماهير الثائرة وتمويلها وتسليحها لعل هذا أن يثنى الملك عن استعمال القوة مع الجمعية (٧٩) .

وفى صباح ١٤ يوليو الباكر أغار حشد من ثمانية آلاف رجل على الأوتيل ديز نفاليد ، واستولوا على ٣٢,٠٠٠ بندقية ، وبعض البارود ، واثنى عشرة قطعة من المدفعية . وفجأة صاح أحدهم « إلى الباستيل » . ولكن لم الباستيل بالذات ؟ لا لإطلاق سراح سجنائه ، الذين لم يتعدوا السبعة ، فضلا عن أنه كان بوجه عام منذ ١٧١٥ يستعمل مكاناً لحبس راق لسراة القوم . غير أن هذه القلعة الضخمة التى بلغ ارتفاعها مائة قدم وسمك أسوارها ثلاثين قدماً والتى أحاط بها خندق عرضه خمسة وسبعون قدماً ظلت أمداً طويلا رمزاً للاستبداد . وكانت ترمز فى ضمير الشعب إلى مئات السجون والزنزانات الخفية ، وكان بعض الكراسات قد طالب بتدميرها . ولعل ما أثار الجمع علمهم بأن الباستيل قد صوب بعض المدافع إلى شارع وضاحية سانت — أنطوان ، وهى حى يغلى بالمشاعر الثورية . وربما كان أهم من هذا كله ما قيل من أن الباستيل احتوى مخزناً ضخماً من السلاح والذخيرة ، لا سيما البارود ، ولم يملك الثوار منه إلا القليل . وكان فى القلعة حامية قوامها اثنان وثمانون جندياً فرنسياً واثنان وثلاثون من الحرس السويسرى ، بقيادة المركيز دلونى ، وكان رجلا لين الطبع (٨٠) . ولكن ذاع عنه بين الجماهير أنه وحش غليظ القلب (٨١) .

وبينما كان الجمع الذى تألف أكثره من الباعة والصناع يتجه صوب الباستيل استقبل دلونى وفداً من المجلس البلدى ، طلب إليه سحب المدافع المهددة من مواقعها ، وألا يتخذ أى اجراء عدائى نحو الشعب ، ووعد نظير ذلك باستخدام نفوذه لثنى الجمع عن مهاجمة الحصن . ووافق القائد ، واستضاف الوفد لتناول طعام الغداء ، وتلقت لجنة أخرى أوفدها المحاصرون

أنفسهم تعهداً من دلونى بألا يطلق جنوده النار على الشعب ما لم تكن هناك محاولة لاقتحام الحصن عنوة . ولكن هذا لم يرض الجمع الهائج ، فقد كان مصمماً على الاستيلاء على الذخيرة التى لاتستطيع بنادقه بدونها أن تقاوم الزحف المنتظر من جنود بيزنفال الأجانب على المدينة . على أن بيزنفال لم يكن حريصاً على الزحف إلى داخل باريس إذ خامره الظن بأن جنوده سيرفضون إطلاق النار على الشعب . لذلك انتظر الأوامر من دبرولى ، ولكن شيئاً منها لم يصله .

وحوالى الواحدة بعد الظهر تساق ثمانية عشر من الثوار سور بناء مجاور ، ووثبوا إلى داخل الفناء الأمامى للباستيل ، وأنزلوا كوبريين متحركين ، فعبر المئات فوق الخندق ، وأنزل كوبريان آخران ، وسرعان ما امتلأ الفناء بجمع متحفز واثق من نفسه . فأمرهم دلونى بالانسحاب ، فأبوا ، وعليه فقد أصدر أمره لجنوده بإطلاق النار عليهم . ورد المهاجمون على النار وأشعلوا النيران فى بعض الأبنية الخشبية والملاصقة للأسوار الحجرية . وحوالى الثالثة انضم أفراد من الحرس الفرنسيين المنطرفين إلى المحاصرين ، وأخذوا يقصفون الحصن بخمسة من المدافع التى استولت عليها الجماهير ذلك الصباح من الأوتيل ديزنفاليد . وبعد أربع ساعات من القتال لقى ثمانية وتسعون من المهاجمين وواحد من المدافعين مصرعهم. أما دلونى فحين رأى الجمع لايفتأ يزداد عدداً بوصول امداد جديدة ، وإذ لم تصله كلمة تعده بالعون من بزينفال ، ولم يكن لديه مؤونة من الطعام تثبت للحصار ، فقد أمر جنده بالكف عن إطلاق النار ورفع علم أبيض . ثم عرض الاستسلام إذا سمح لجنوده بالخروج بسلاحهم آمنين ، فرفض الجمع الذى هاجه منظر قتلاه النظر فى أى شىء غير التسليم دون قيد أو شرط[٨٢] . وأراد دلونى نسف الحصن فمنعه رجاله . وعليه أرسل إلى المهاجمين أسفل الحصن مفتاح المدخل الرئيسى . واندفع الجمع ، وجردوا الجنود من سلاحهم ، وقتلوا ستة منهم ، وقبضوا على دلونى ، وأطلقوا سراح السجناء المذهولين .

وبينما كان كثير من المنتصرين يستولون على ما وصلت إليه أيديهم من سلاح وذخيرة ، قاد فريق من الجمع دلونى إلى الأوتيل دفيل توطئة لمحاكمته

فيما يبدو على جريمة القتل . وفى الطريق أوقفه المتحمسون منهم وأوقعوه أرضا ، وأوسعوه ضرباً حتى مات ، ثم قطعوا رأسه ، واخترقوا شوارع باريس فى عرض ظافر وهم يحملون هذه الغنيمة الدامية مرفوعة عالياً فوق حربة .

فى عصر ذلك اليوم عاد لويس السادس عشر إلى فرساى من رحلة صيد قضى فيها نهاره ، ودون فى يوميته هذه الملاحظة « ١٤ يوليو : لا شىء » فلما وصل الدوق دلا روشكوكو — لا نكور قادماً من باريس أنبأه بنبأ الهجوم الناجح على الباستيل . وقال الملك مندهشاً « ماذا ، هذا تمرد ! » وأجاب الدوق « لا يا مولاى ، إنها ثورة » .

وفى ١٥ يوليو ذهب الملك إلى الجمعية فى تواضع وأكد لها أن الجنود الإقليميين والأجانب سيبعدون عن فرساى وباريس ، وفى ١٦ يوليو أقال بروتوى واستدعى نكير لوزارة ثالثة . وبدأ بروتوى وأرتوا ودبرولى وغيرهم من النبلاء حركة نزوح المهاجرين عن فرنسا ، ودمرت الجماهير أثناء ذلك الباستيل بعد أن تسلحت بالمعاول والبارود . وفى ١٧ يوليو ذهب لويس إلى باريس يرافقه خمسون من الجمعية ، واستقبله المجلس البلدى والشعب فى الأوتيل دفيل ، وثبت على قبعته شارة الثورة الحمراء البيضاء الزرقاء .

ختـــام

وهكذا نختتم فى هذين المجلدين الأخيرين مسحنا للقرن الذى مازالت صراعاته وإنجازاته فعالة اليوم فى حياة البشر . لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التى قد تحقق — قبل أن نصل إلى الألف الثانى للميلاد — حلم أرسطو بالآلات التى تحرر البشر من كل عناء يدوى . ولقد سجلنا المراحل التى خطتها علوم كثيرة صوب فهم أفضل للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها . ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل فى شئون البشر الدنيوية . ولقد تتبعنا باهتمام حى محاولة تحرير الدين من الشعوذة والتعصب الأعمى وعدم التسامح ، وتنظيم الأخلاقية

دون استعانة بالثواب والعقاب السماويين ؛ ولقد علمتنا جهود الساسة والفلاسفة أن نقيم حكومة عادلة قادرة ، وأن نوفق بين الديمقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية . ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال فى الباروك ، والفن الكلاسيكى المحدث . وانتصارات الموسيقى فى باخ ، وهندل ، وفيفالدى وفى جلوك ، وهايدن ، وموتسارت . ولقد شهدنا ازدهار الأدب فى ألمانيا على يد شيلر وجوته ، وفى انجلتره على يد فحول الروائيين وأعظم المؤرخين ، وفى أسكتلنده على يد بوزويل وبيرنز ، وفى السويد بتفجر الأغنية فى عهد جوستاف الثالث ؛ وفى فرنسا ترددنا بين فولتير منافحاً عن العقل والذكاء وبين روسو مدافعاً بالدموع عن حقوق الوجدان . ولقد سمعنا الصفيق الذى عاش عليه جاريك وكليرون ، وأعجبنا بسلسلة من النساء الفاتنات فى صالونات فرنسا وانجلتره ، وبملك النساء المتألق فى النمسا وروسيا . ثم راقبنا الملوك الفلاسفة .

وقد يبدو من السخف أن ننهى قصتنا فى اللحظة التى أوشك الكثير جداً من الأحداث على بث الحياة ونفخ الروح فى هذه الصفحات . وما كان أسعدنا لو أتيح لنا الزحف خلال ضجيج الثورة وعجيجها ، ثم فحصنا ذلك التفجر البركانى للطاقة المعروف بنابليون ، واستمتعنا أيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر فى الأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والموسيقى ، والفن ، والتكنولوجيا ، والحكم . وكان يهجنا أكثر لو عدنا إلى وطننا أمريكا ، جنوبها وشمالها ، وحاولنا أن ننسج قطعة النسيج المعقدة ، نسيج الحياة والتاريخ الأمريكيين فى صورة واحدة متماسكة متحركة . بيد أنه لابد لنا أن نروض أنفسنا على تقبل فكرة الفناء ، وأن نترك لعقول أنضر القيام بمهمة ومغامرة ، هما إضافة تجارب فى التأليف والتركيب إلى البحوث الأساسية التى قام بها الإخصائيون التاريخيون والعلميون .

لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ، ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل ، فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة فى التاريخ ، وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين

يطمو نهر المعرفة ويتعاظم . غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ، ازددنا يقيناً بأن كتابة التاريخ الرسمى قد أسرف فى تجزئتها أبواباً وفروعاً ، وأنه ينبغى لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلا ، كما كان يعاش ، فى جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة فى ملاحقة التاريخ . وكنا نحلم باليوم الذى نكتب فيه آخر كلمة فى آخر مجلد . والآن وقد أقبل هذا اليوم فإننا علمان بأننا سنفتقد الهدف الممتع الذى أضفى على حياتنا معنى واتجاها .

وإننا لشاكران للقارىء الذى صاحبنا هذه السنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها . لقد كنا على الدوام واعين بحضوره . والآن نستأذنه فى الرحيل ونقرنه تحية الوداع .

Obeikandl.com

المراجـــع

CHAPTER XXVII

1. Shakespeare, *Richard II*, Act II, Sc. i.
2. Nussbaum, *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 130.
3. Namier, Sir Lewis, *Crossroads of Power*, 175.
4. Ashton, T. S., *Economic History of England*, 179.
5. Watson, J. S., *Reign of George III*, 28.
6. Nussbaum, 73.
7. Hammond, J. L. and Barbara, *The Village Labourer*, 17.
8. Usher, A. P., *An Introd. to the Industrial History of England*, 323.
9. Quennell, M. and C., *History of Everyday Things in England*, 79.
10. Mantoux, Paul, *The Industrial Revolution in the 18th Century*, 258.
11. Samuel Smiles, *Lives of the Engineers*, in *History Today*, April, 1956, 263.
12. *Ibid.*, 263, 265.
13. *The Age of Voltaire*, 517.
14. Mantoux, 326.
15. Usher, *Introd. to Industrial History*, 326.
16. Boswell, *Life of Johnson*, 598.
17. Lipson, E., *Growth of English Society*, 190.
18. Mantoux, 385; George, *London Life*, 206-
19. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 73.
20. Mantoux, 439; Smith, 60.
21. Ashton, 203.
22. Mantoux, 70.
23. Arthur Young in Turberville, *Johnson's England*, I, 218.
24. Müller-Lyer, F., *History of Social Development*, 221.
25. Mantoux, 420.
26. *Ibid.*, 421.
27. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 313.
28. Webb, Sidney and Beatrice, *History of Trade Unionism*, 51.
29. Ashton, 235.
30. Traill, H. D., *Social England*, V, 336.
31. Mantoux, 411.
32. *Ibid.*, 413.
33. 413.
34. Lecky, *History of England*, III, 135-36.
35. Smith, *Wealth of Nations*, I, 59.
36. Rogers, J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 89.

CHAPTER XXVIII

1. George, M. D., *England in Transition*, 218 f.
2. *Ibid.*, 219.
3. 218.
4. Namier, *Structure of Politics at the Accession of George III*, 80.
5. New *CMH*, VII, 245.
6. Lecky, *History of England*, III, 172.
7. Wilson, P. W., *William Pitt the Younger*, 6.
8. Plumb, J. H., *Men and Places*, 22.
9. Namier, *Structure of Politics*, 77-79.
10. *Ibid.*, 150.
11. Lecky, III, 171.
12. Blackstone, Sir W., *Commentaries on the Laws of England*, 17 (p. 50 of orig. ed.).
13. Namier, *Crossroads of Power*, 133.
14. Thackeray, *The Four Georges*, 62.
15. Cf. Butterfield, *George III and the Historians*, 175; Morley, John, *Burke: a Historical Study*, 9.
16. Lecky, III, 11; Namier in *History Today*, September, 1953, p. 615.
17. Watson, J. S., *The Reign of George III*, 6.
18. *Age of Voltaire*, Ch. iii, Sec. ix; present volume, Ch. ii. Secs. ii, iv.
19. Walpole, Horace, *Memoirs of the Reign of George III*, II, 331.
20. Burke, Edmund, speech on American Taxation, in *Speeches and Letters on American Affairs*, 28.
21. Burke, *Vindication of Natural Society*, 9.
22. *Ibid.*
23. 12-16.

25. 22.
26. 44.
27. 21.
28. 48.
29. 50.
30. Morley, John, *Burke*, 13.
31. *Vindication*, 4 (preface).
32. Burke, *On Taste, and On the Sublime and Beautiful*, 45 f.
33. *Ibid.*
34. 93.
35. 95.
36. Macaulay, *Essays*, I, 454.
37. Morley, *Burke*, 30.
38. *Ibid.*, 104.
39. Boswell, *Journal of a Tour to the Hebrides*, 141.
40. Stephen, Sir Leslie, *History of English Thought in the 18th Century*, I, 222.
41. *Parliamentary History*, XXXVII, 363, in Buckle, H. T., *An Introd. to the History of Civilization in England*, I, 327.
42. Piozzi, Hester Thrale, *Anecdotes of the Late Samuel Johnson*, 138.
43. Morley, *Burke*, 107.
44. In *Cambridge History of English Literature*, XI, 9.
45. *Enc. Brit.*, XI, 644d.
46. Moore, Thomas, *Memoirs of the Life of Sheridan*, I, 78.
47. Drinkwater, John, *Charles James Fox*, 9, 11.
48. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 277.
49. Thackeray, *Four Georges*, 87.
50. *Enc. Brit.*, IX, 568b.
51. Drinkwater, 195.
52. Walpole, Horace, *Letters*, Feb. 4, 1778.
53. Lecky, III, 468.
54. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 54.
55. National Gallery, London; Dulwich College; National Gallery, Washington.
56. Moore, *Sheridan*, I, 17.
57. *The Rivals*, Act I, Sc. ii.
58. *Ibid.*, III, iii.
59. In Taine, H., *English Literature*, 355.
60. *Enc. Brit.*, XVII, 973b.
61. Wilson, P. W., *William Pitt*, 58.
62. Dorn, W. L., *Competition for Empire*, 75.
63. Walpole, letter of Oct. 31, 1760.
64. Laski, Harold, *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 144.
65. Butterfield, *George III*, 173.
66. Lecky, III, 61.
67. Macaulay, *Essays*, I, 431.
68. Wilson, *William Pitt*, 44.
69. Gibbon, Edward, *Journal*, 145.
70. *Enc. Brit.*, XXIII, 602b.
71. *Ibid.*
72. Sherwin, *A Gentleman of Wit and Fashion: The Life and Times of George Selwyn*, 47-53.
73. Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 140.
74. Walpole, *Memoirs of Reign of George III*, I, 248.
75. *Enc. Brit.*, XXIII, 603d.
76. Walpole, *Reign of George III*, I, 263.
77. *Boswell on the Grand Tour: Italy, Corsica and France*, 5.
78. Walpole, *Reign of George III*, III, 239.
79. Lecky, III, 151.
80. S. MacCoby, ed., *The English Radical Tradition*, 2.
81. Lecky, III, 175-76.
82. *Ibid.*, 152.
83. MacCoby, 2.
84. Lecky, III, 153.
85. Junius, *Letters*, 3-6.
86. Junius, letter of Nov. 29, 1769.
87. *Letters*, pp. 134, 148.
88. *Ibid.*, p. 29.
89. Lecky, II, 468.
90. Walpole, *Reign of George III*, IV, 78; Lecky, III, 143.
91. MacCoby, 31.
92. *Enc. Brit.*, XXIII, 603d.
93. *CMH*, VIII, 714.
94. Lecky, III, 268.
95. *Ibid.*, 300.
96. Watson, *Reign of George III*, 174.
97. Ashton, 158; Traill, V, 115.
98. Hammond, J. L. and Barbara, *Rise of Modern Industry*, 32.
99. Lecky, III, 299.
100. Drinkwater, 94.
101. *CMH*, VIII, 521.
102. Lecky, III, 331.
103. Beard, Charles and Mary, *Rise of American Civilization*, I, 212.
104. Peterson, Houston, *Treasury of the World's Great Speeches*, 102-22.
105. Lecky, III, 530.
106. *Ibid.*, 531.
107. 545.
108. Peterson, 143-46.
109. *CHE*, IX, 6.
110. Sherwin, 205.
111. Burke, *Speeches and Letters on American Affairs*, 84.
112. *Ibid.*, 118-19.
113. Drinkwater, 145.
114. Walpole, letter of Sept. 11, 1775.
115. Lecky, IV, 82.
116. Churchill, Sir Winston, *History of the English-Speaking Peoples*, II, 116.
117. Lecky, IV, 121.
118. Namier, *Crossroads*, 130.
119. *Enc. Brit.*, V, 833d.
120. Namier, *Crossroads*, 164.
121. Walpole, letter of Mar. 5, 1772.
122. Lecky, III, 491.
123. *CMH*, VI, 570.
124. *Ibid.*, 572.

125. 578-80.
126. Walpole, letter of Mar. 2, 1773.
127. Wilson, *William Pitt*, 171.
128. Morley, *Burke*, 33; Namier, *Crossroads*, 165-67.
129. Watson, *Reign of George III*, 319.
130. Morley, *Burke*, 125.
131. G. G. S., *Life of R. B. Sheridan*, 113.
132. Macaulay, *Essays*, I, 633.
133. Peterson, *Great Speeches*, 179.
134. Gibbon, *Memoirs*, 334.
135. Macaulay, I, 644.
136. Burke, *Observations on the State of the Nation* (1769), in Lecky, V, 335n.
137. Burke, speech on "Relief of Protestant Dissenters" (1773), in Morley, *Burke*, 69.
138. Wilson, *William Pitt*, 226.
139. Stephen, *English Thought in the 18th Century*, I, 279.
140. Lecky, V, 449; Wilson, 235.
141. Burke, *Reflections on the French Revolution*, 8.
142. *Enc. Brit.*, IV, 418c.
143. Burke, *Reflections*, 35.
144. *Ibid.*, 18 f..
145. 36.
146. 73.
147. *Enc. Brit.*, IV, 418d.
148. *CHE*, X, 285.
149. Morley, *Burke*, 179.
150. *Ibid.*, 15.
151. Burke, *Reflections*, 93.
152. *Ibid.*, 6.
153. *CHE*, XI, 11.
154. *Letter to a Member of the National Assembly*, in *Reflections*, 279.
155. Burke, 87.
156. Lecky, III, 218-19; Stephen, *English Thought in the 18th Century*, I, 251-52; Laski, 159, 171.
157. Laski, 147.
158. Sherwin, *Selwyn*, 275.
159. Taine, *English Literature*, 416.
160. Wilson, 325.
161. G. G. S., *Life of Sheridan*, 155.

CHAPTER XXIX

1. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, Mar. 12, 1827.
2. Lecky, *England in the 18th Century*, VI, 139.
3. Quennell, *Everyday Things*, 93.
4. George, *London Life*, 103.
5. Quennell, 90.
6. George, 26.
7. Boswell, *Hebrides*, 31.
8. Lecky, VI, 153.
9. Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 128.
10. Boswell, *Life of Johnson*, 1, 781.
11. Sherwin, *George Selwyn*, 34.
12. *Ibid.*, 125.
13. Drinkwater, *Charles James Fox*, 13.
14. Lecky, VI, 152.
15. Boswell, *Johnson*, 978.
16. *Age of Voltaire*, Ch. ii, Sec. vi.
17. *Wealth of Nations*, II, 276.
18. Stephen, *English Thought*, I, 421.
19. Besant, *London*, 282-83.
20. Sherwin, 288.
21. *Vicar of Wakefield*, Ch. xxiv.
22. Boswell, *Johnson*, 338.
23. Lecky, VI, 268; Drinkwater, 131.
24. Lecky, VI, 269.
25. Boswell, *Johnson*, 846.
26. Walpole, Mar. 22, 1780.
27. *CMH*, VI, 187.
28. Buckle, *An Introd. to the History . . of England*, I, 321n.
29. George, *London Life*, 135.
30. Botsford, J. B., *English Society in the 18th Century*, 332 f.
31. Blackstone, *Commentaries*, 128-29.
32. *Enc. Brit.*, XX, 780a.
33. *Ibid.*, 780d.
34. Faÿ, Bernard, *Franklin*, 77.
35. Mowat, *Age of Reason*, 61.
36. Quennell, 9.
37. Watson, P. B., *Some Women of France* 77.
38. Walpole, *Memoirs of the Reign of George III*, IV, 158.
39. Boswell, *Johnson*, 597.
40. Burke, *Reflections*, 86.
41. *Boswell on the Grand Tour: Italy . . .*, 184.
42. Robertson, *Short History of Freethought*, II, 206.
43. *Boswell in Holland*, 62.
44. Gibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, V, 554.
45. Faÿ, *La Franc-Maçonnerie*, 273.
46. *Age of Voltaire*, pp. 528, 580.
47. Cowper, *The Task*, ii. lines 378-94.
48. Stephen, *English Thought*, II, 375.
49. Walpole, June 3, 1780.
50. Walpole, June 7, 1780.
51. June 16, 1780.
52. Lecky, V, 189.
53. Sir F. D. McKinnon, in Turberville, *Johnson's England*, II, 289.
54. Bentham, Jeremy, *A Fragment on Government*, 22.
55. Blackstone, *Commentaries*, Vol. I, p. 3.
56. *Commentaries* (orig. ed.), Book I, Ch. vii.
57. *Commentaries* (1914 ed.), Vol. II, p. 129.
58. Lecky, VI, 261.
59. *Ibid.*, 255-58; Turberville, I, 17-21; Johnson, *The Idler*, Jan. 6, 1759.
60. Besant, *London*, 608.
61. Bentham, *Fragment*, 10.
62. *Ibid.*

63. Ch. iv, No. 20.
64. Bentham, *Fragment*, 3.
65. *Ibid.*, 56.
66. *Age of Voltaire*, 139, 149, 529, 687.
67. Mack, M. P., *Jeremy Bentham*, 102-5.
68. Bentham, *Introduction to Principles of Morals and Legislation*, 189.
69. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 127.
70. Davidson, W. L., *Political Thought in England: The Utilitarians*, 26.
71. Turberville, II, 178.
72. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, V, 388.
73. Krutch, *Samuel Johnson*, 272.
74. Barton, Margaret, *Garrick*, 53.
75. *Ibid.*, 59.
76. 50.
77. Burney, Fanny, *Diary*, 12.
78. Hawkins, Sir John, *Life of Samuel Johnson*, 189.
79. Pearson, Hesketh, *Johnson and Boswell*, 282.
80. Johnson, Samuel, *Works*, I, 196.
81. Krutch, 37.
82. George, *London Life*, 288.
83. *Boswell: The Ominous Years*, 118.
84. Turberville, I, 195.
85. George, *London*, 171.
86. *Ibid.*, 24.
87. Turberville, I, 171.
88. *Boswell's London Journal*, 81.
89. Boswell, *Johnson*, 733.

CHAPTER XXX

1. Geiringer, *Haydn*, 95.
2. *Ibid.*, 103.
3. Burney, Charles, *History of Music*, II, 868.
4. Walpole, June 23, 1789.
5. National Portrait Gallery, London.
6. Burney, II, 9.
7. Sherwin, *Selwyn*, 110.
8. Lewis, W. S., *Horace Walpole*, 107.
9. Turberville, II, 110.
10. Dillon, *Glass*, 299.
11. Samuel Smiles in Mantoux, *Industrial Revolution*, 385.
12. London, Royal Academy of Arts.
13. Turberville, II, 10.
14. *Ibid.*, 91.
15. Wilson, *William Pitt*, 97.
16. Collection of Lady Ford.
17. Greenwich, Eng., National Maritime Museum.
18. London, National Gallery. (Unallocated pictures are in private collections.)
19. National Portrait Gallery.
20. *Ibid.*
21. Reynolds, Sir Joshua, *Portraits*, 110.
22. National Portrait Gallery.
23. *Ibid.*
24. San Marino, Calif., Huntington Art Gallery.
25. Waterhouse, *Reynolds*, 110.
26. *Ibid.*, 127.
27. 79.
28. 87.
29. 63.
30. 267.
31. 291; London, National Gallery.
32. Waterhouse, 57.
33. Wallace Collection, London.
34. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 3.
35. Wilenski, R. H., *English Painting*, 150.
36. Reynolds, *Portraits*, 167.
37. Boswell, *Johnson*, 651.
38. National Portrait Gallery.
39. Royal Academy of Arts.
40. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 78 (Discourse VI), 8 (I).
41. *Ibid.*, 7 (I).
42. 14 (II).
43. *Ibid.*
44. 30 (III).
45. *Ibid.*
46. 264 (XV).
47. Wilenski, 113.
48. Allan Cunningham in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 789.
49. Gillet, Louis, *La Peinture, xviie et xviiie siècles*, 416.
50. Washington, National Gallery.
51. Edinburgh, National Gallery.
52. Millar, Oliver, *Thomas Gainsborough*, 11.
53. Clark, B. H., *Biographies*, 796.
54. Craven, Thomas, *Treasury of Art Masterpieces*, 214.
55. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 230 (XIV).
56. Waterhouse, *Gainsborough*, 36.
57. Pijoan, Joseph, *History of Art*, III, 479.
58. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 227 (XIV).

CHAPTER XXXI

1. Lecky, *England in the 18th Century*, IV, 314.
2. *New CMH*, VIII, 28.
3. *Ibid.*, 714.
4. Lecky, IV, 317.
5. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, IV, 545; *Enc. Brit.*, X, 659d.
6. Faÿ, *La Franc-Maçonnerie*, 399.
7. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 70.
8. Johnson, *Works*, II, 271, 345.
9. Boswell, *Hebrides*, 135.
10. *Enc. Brit.*, XX, 169d.
11. Snyder, F. B., *Life of Robert Burns*, 189.
12. *Age of Voltaire*, 184.
13. *Ibid.*, 507-86.
14. 586-602.
15. 139-61.
16. Reid, Thomas, *Works*, I, 7, 81, 91.

17. *Ibid.*, 12.
18. 106.
19. Hume, David, *Treatise of Human Nature*, I, 254.
20. Reid, *Works*, 423.
21. Boswell's Journal, Sept. 16, 1769 (*Boswell in Search of a Wife*, 293).
22. London National Portrait Gallery.
23. Edinburgh National Gallery.
24. Private Collection.
25. Carlyle, *Schiller*, 103.
26. Walpole, July 11, 1759.
27. Gibbon, *Memoirs*, 122.
28. Stewart, Dugald, *Life of Robertson* (1811), 305.
29. Gibbon, *Memoirs*, Appendix 22, p. 296.
30. Black, *Art of History*, 15.
31. Brandes, *Goethe*, I, 84.
32. See *The Age of Faith*, 498.
33. Thomson, Derick, *The Gaelic Sources of Macpherson's "Ossian,"* 4-5, 80.
34. Macpherson, James, *Poems*, 40 (*Fingal*, Book I).
35. *Ibid.*, 49, 52, 54.
36. 415-16.
37. Johnson, *Works*, XII, 375; Boswell, *Hebrides*, 163.
38. Boswell, *Johnson*, 496.
39. Thomson, Derick, 16 f.
40. Buckle, Ib, 347.
41. Smith, Adam, *Moral and Political Philosophy*, 75.
42. *Ibid.*, 255.
43. 191.
44. Laski, *Political Thought in England*, 99, 101, 188; see also *Age of Voltaire*, 155.
45. Smith, *Wealth of Nations*, II, 107.
46. *Ibid.*, 113.
47. 121.
48. See *Age of Voltaire*, 138.
49. *Wealth of Nations*, II, 180.
50. *Ibid.*, I, 26, 29.
51. I, 119.
52. 129.
53. 129.
54. 42.
55. 75, 2.
56. 73.
57. 72, 345.
58. Rosebery, Lord, *Pitt*, 4.
59. Waterhouse, *Reynolds*, 329.
60. Burns's autobiographical letter to John Moore, in Neilson, W. A., *Robert Burns*, 1.
61. In Snyder, *Burns*, 54.
62. *Ibid.*, 67.
63. 67.
64. 239.
65. See "The Ordination."
66. Witte, *Schiller and Burns*, 10.
67. Hill, J. C., *Love Songs and Heroines of Robert Burns*, vii-2.
68. Burns, Robert, *Works*, I, 85, 75.
69. *Ibid.*, 101.
70. Witte, *Schiller and Burns*, 10.
71. "The Rigs o' Barley."
72. Burns, *Works*, I, 85, 77.
73. *Ibid.*, 50.
74. Brown, Hilton, *There Was a Lad*, 23, 50.
75. Carlyle, *Essay on Burns*, in *Works*, XIII, 294-96.
76. Burns, *Works*, I, 162.
77. Keith, Christina, *The Russet Coat*, 81.
78. Burns, *Works*, I, 141.
79. Brown, Hilton, 26.
80. Snyder, 297.
81. *Ibid.*, 308.
82. Hill, J. C., 102.
83. Snyder, 360, 374, 379, 390.
84. Burns, Robert, and Mrs. Dunlop, *Correspondence*, II, *viii*.
85. Burns, *Works*, I, 24.
86. Currie, James, *Life of Robert Burns*, in Burns, *Works*, II, 58.
87. Robert Chambers in Snyder, 432.
88. Snyder, 432-35.
89. *Ibid.*, 430.
90. *Boswell's London Journal*, 108.
91. Pearson, 107.
92. *Boswell's London Journal*, 66.
93. *Ibid.*, 93.
94. 66.
95. 93.
96. 137.
97. 206-9.
98. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 44.
99. Boswell, *Johnson*, 237-40.
100. *Boswell's London Journal*, 251, 281.
101. *Boswell in Holland*, Sept. 18, 1763.
102. *Ibid.*, 387-90.
103. 46.
104. 157.
105. 259-61.
106. 314.
107. 328.
108. 330.
109. 349.
110. 368.
111. *Boswell on the Grand Tour: Germany*, 134.
112. *Ibid.*, 117.
113. 164-66.
114. 241.
115. *Boswell in Search of a Wife*, 24.
116. *Ibid.*, 36-37.
117. 76.
118. 207.
119. 240.
120. *Boswell for the Defense*, 140.
121. *Boswell: The Ominous Years*, 34-48.
122. *Ibid.*, 304-7.
123. Macaulay, *Essays*, II, 539-41.
124. *Boswell: The Ominous Years*, 37-38.

125. *Boswell in Search of a Wife*, 40.
126. *Boswell: The Ominous Years*, Introd., *x*.

CHAPTER XXXII

1. Johnson, *The Idler*, No. 40.
2. Brooke, Henry, *The Fool of Quality*, 80.
3. Cross, Wilbur, *Life and Times of Laurence Sterne*, 99.
4. *Ibid.*, 179.
5. *Ibid.*
6. 183.
7. Parton, *Life of Voltaire*, II, 267.
8. Mossner, E. C., *Life of David Hume*, 503.
9. Sterne, Laurence, *Tristram Shandy*, Book VIII, Ch. ii.
10. *Ibid.*, Book IV, Ch. xxxviii.
11. Cross, 263.
12. Sterne, *Letters to Eliza*, x.
13. *Ibid.*, letter of Apr. 14, 1767.
14. Sterne, *Journal*, Apr. 24, 1767.
15. Moore, Thomas, *Life of Lord Byron*, in Taine, *English Literature*, 477.
16. Macaulay, *Essays*, II, 565.
17. Burney, Fanny, *Diary*, 17.
18. Burney, Fanny, *Evelina*, 22.
19. Letter of Mar. 5, 1772.
20. Walpole, Feb. 18, 1769.
21. See *Age of Voltaire*, 95–98.
22. Lewis, *Horace Walpole*, 12n: Wharton, Grace and Philip, *Wits and Beaux of Society*, II, 28.
23. Walpole, "Reminiscences," in *Letters*, I, *xciii*.
24. Letter of Mar. 2, 1773.
25. Nicolson, Harold, *The Age of Reason*, 249.
26. Walpole, *Memoirs of the Reign of George III*, II, 154.
27. Letter of Nov. 24, 1774.
28. Nicolson, 248.
29. *Ibid.*, 249.
30. Letter of July 24, 1756.
31. Letter of Dec. 2, 1762.
32. Sherwin, *Selwyn*, 104.
33. Letter of Nov. 11, 1766.
34. Walpole, *Memoirs of the Last Ten Years of the Reign of George the Second*, p. *xl*.
35. Letter of June 15, 1768.
36. Oct. 1, 1782.
37. Nov. 11, 1763.
38. Lewis, *Horace Walpole*, 5.
39. Feb. 7, 1772.
40. Jan. 12, 1766.
41. Letter to John Chute, January, 1766.
42. Lewis, 20.
43. Wharton, II, 83.
44. Lewis, 81.
45. Jan. 18, 1759.
46. Gibbon, *Memoirs*, introd. by G. B. Hill, *xxi*; Robertson, J. M., *Gibbon*, 1.
47. *Memoirs*, 20.
48. *Age of Voltaire*, 127.
49. *Memoirs*, 45.
50. *Ibid.*, 51, 54.
51. 65.
52. 69.
53. 105.
54. 106, 156.
55. Gambier-Parry, M., *Madame Necker*, 16.
56. Gibbon, *Journal*, introd., *lxxii*.
57. *Memoirs*, 107.
58. *Ibid.*, 120.
59. Gibbon, *Essai sur l'étude de la littérature*, in *Miscellaneous Writings*, No. 1.
60. *Ibid.*, *liii*.
61. *Memoirs*, 143.
62. *Journal*, 22.
63. *Ibid.*, 136.
64. *Memoirs*, 153.
65. Robertson, J. M., *Gibbon*, 117; *Memoirs*, 158.
66. *Ibid.*, 167.
67. *Decline and Fall of the Roman Empire*, final page.
68. *Memoirs*, Appendix 30.
69. *Ibid.*, 172.
70. 189.
71. 191n.
72. 193.
73. Robertson, *Gibbon*, 119: Drinkwater, *Charles James Fox*, 206.
74. Low, D. M., *Edward Gibbon*, 282.
75. *Memoirs*, 190.
76. *Ibid.*, 195.
77. 195.
78. *Decline and Fall*, I, 316. Renan agreed with Gibbon about the Antonines; see his *Marc Aurèle*, 479. Calmann-Lévy, Paris, n.d.
79. *Decline and Fall*, I, 316.
80. *Ibid.*, 250.
81. 9 and 10 William III, c. 22.
82. *Decline and Fall*, II, 72–73.
83. *Ibid.*
84. 102–5.
85. 182.
86. 244; see Voltaire's view in *The Age of Voltaire*, 486.
87. Low, 260.
88. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 152–53.
89. Low, 258.
90. Gibbon, *Miscellaneous Writings*, 277.
91. Walpole, Jan. 27, 1781.
92. *Memoirs*, 211.
93. *Decline and Fall*, 432–33.
94. *Memoirs*, 213.
95. *Ibid.*, 215.
96. Low, 302.
97. *Memoirs*, 214.
98. Walpole, June 5, 1788.
99. *Decline and Fall*, VI, 656.
100. *Memoirs*, 225.
101. *Ibid.*, 89n.

102. Fuglum, Per, *Edward Gibbon*, 15.
103. *Memoirs*, 240.
104. Boswell, *Johnson*, Mar. 19, 1781.
105. Low, 222-23.
106. *Memoirs*, 230-31.
107. Low, 320.
108. *Memoirs*, 228, 234; G. G. S., *Life of Sheridan*, 122.
109. *Memoirs*, Appendix 55.
110. *Ibid.*, 241n.
111. Appendix 66.
112. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 159.
113. *Memoirs*, Appendix 66.
114. *Ibid.*, 339 and Appendix 62.
115. Gibbon, *Correspondence*, II, 93, 298, in *Memoirs*, 339.
116. *Correspondence*, II, 255, in Robertson, *Gibbon*, 120.
117. Gibbon, *Autobiography*, Everyman's Library ed., in Gay, P., *Voltaire's Politics*, 259.
118. *Memoirs*, introd. by G. B. Hill, *xii*.
119. Low, 344.
120. Gibbon, letter of Nov. 11, 1793.
121. *Decline and Fall*, 1776 ed., I, 206.
122. Bury, J. B., in *Enc. Brit.*, X, 331d.
123. *Decline and Fall*, ed. J. B. Bury, I. *xli*.
124. *Ibid.*, *xlvii*; Robertson, *Gibbon*, 15; Black, *Art of History*, 161.
125. *Decline and Fall*, IV, 673.
126. *Ibid.*, 99.
127. I, 314.
128. Voltaire, *Works*, XVIa, 250-51.
129. *Decline and Fall*, III, 97.
130. VI, 337.
131. Cf. Fuglum, 136.
132. *Decline and Fall*, Ch. lxiv.
133. V, 237.
134. *Ibid.*, 423.
135. III, 522.
136. Preface to Milman ed., p. 6.
137. *CHE*, X, 445.
138. Seebohm, Frederick, *The Age of Johnson*, 228.
139. Walpole, letter of Nov. 15, 1764; *Reign of George III*, II, 25.
140. Nevill, J. C., *Thomas Chatterton*, 96.
141. Chatterton, *Complete Poetical Works*, 207.
142. *Ibid.*, 64.
143. Walpole, letters of June 19, 1777, and July 24, 1778.
144. Irving, Washington, *Oliver Goldsmith*, 266.
145. Stanza xlv.
146. Cowper, William, *Poems*, 135.
147. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 173.
148. Cowper, 188.
149. *CHE*, XI, 89.
150. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 176-77.
151. Cowper, 87.
152. See *Age of Voltaire*, 331.
153. Cowper, *The Task*, Book I, line 749.
154. *Ibid.*, line 718.
155. II, lines 1-7.
156. II, 11-28.
157. 206.
158. Cowper, *Poems*, 172.
159. *Enc. Brit.*, X, 495a (by Macaulay).
160. Boswell, *Johnson*, 252.
161. *Ibid.*, 305.
162. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 37, 170.
163. Thackeray, *English Humourists*, in *Works*, 281n.
164. Irving, 170.
165. *Vicar of Wakefield*, preface.
166. Boswell, *Johnson*, 449.
167. Barton, *Garrick*, 256.
168. E.g., Reynolds, *Portraits*, 38.
169. Irving, 121.
170. Garnett and Gosse, *English Literature*, III, 342; Irving, 320.
171. *Boswell for the Defense*, 167.
172. Thackeray, *English Humourists*, 291.
173. *Ibid.*
174. Goldsmith, Oliver, *Select Works*, 194.

CHAPTER XXXIII

1. Boswell, *Johnson*, 17.
2. Boswell, *Hebrides*, 142.
3. Krutch, *Johnson*, 12.
4. Pearson, *Johnson and Boswell*, 6.
5. Krutch, 10.
6. Boswell, *Johnson*, 564.
7. *Enc. Brit.*, XIII, 109d.
8. Hill, G. Birkbeck, *Johnsonian Miscellanies*, II, 309; Greene, Donald, *Politics of Samuel Johnson*, 133.
9. Johnson, *London*, line 202.
10. Hawkins, *Life of Samuel Johnson*, 55-57.
11. Krutch, 49.
12. *Ibid.*
13. Turberville, *Johnson's England*, I, 318n.
14. Boswell, *Johnson*, 94.
15. *Enc. Brit.*, XIII, 110a.
16. Boswell, *Johnson*, 1177.
17. Hawkins, 66.
18. Hume, David, *Essays, Literary, Moral, and Political*, 52.
19. Johnson, *Works*, I, 213.
20. *Ibid.*, 215.
21. 217.
22. Hawkins, 98.
23. Johnson, *The Rambler*, 257-64.
24. Boswell, *Holland Journal*, Sept. 23, 1763.
25. Davis, Bertram, *Johnson before Boswell*, 72.
26. Hill, G. B., *Miscellanies*, I, 136.
27. Boswell, *Johnson*, 165.
28. *Ibid.*, 242.
29. Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 130.
30. Boswell, *Johnson*, 992.

31. *Ibid.*, 157.
32. *Boswell for the Defense*, 55 (Mar. 23, 1772).
33. *Johnson's Dictionary*, preface; p. 20.
34. *Ibid.*, 284.
35. Boswell, *Johnson*, 179.
36. Arthur Murphy in Johnson, *Works*, I, 89.
37. *Works*, V, 419.
38. *Rasselas*, Ch. vi.
39. *Ibid.*, Ch. xix.
40. Ch. xxviii.
41. Ch. xli.
42. Boswell, *Johnson*, 228.
43. *Ibid.*, 260.
44. Wharton, Grace and Philip, *Wits and Beaux of Society*, I, 366.
45. Krutch, 264.
46. Pearson, 184.
47. Boswell, *Johnson*, 272.
48. Bailey, John, *Dr. Johnson and His Circle*, 35.
49. Boswell, 542.
50. *Boswell for the Defense*, 175.
51. Boswell, *Hebrides*, 189.
52. Pearson, 195.
53. *Boswell's London Journal*, 234.
54. Piozzi, *Anecdotes of the Late Samuel Johnson*, 190.
55. National Portrait Gallery.
56. National Gallery, London.
57. Hawkins, 293.
58. Turberville, I, 384.
59. Boswell, *Johnson*, 283: Hawkins, 147.
60. Boswell, *Hebrides*, 136.
61. Boswell, *Johnson*, 49.
62. Pearson, 81.
63. *Boswell: The Ominous Years*, 264.
64. Bailey, 29.
65. Boswell, *Johnson*, 955.
66. *Ibid.*, 1197.
67. 293.
68. Piozzi, 181.
69. Hawkins, 122.
70. *Rasselas*, Ch. xliii.
71. Hawkins, 132.
72. Boswell, 586.
73. Turberville, II, 198.
74. Krutch, 369.
75. This is Hume's report, in Krutch, 221. and Pearson, 48: the phraseology was made more decorous in Boswell.
76. Boswell, *Hebrides*, 144.
77. Walpole, May 26, 1791.
78. Irving, *Goldsmith*, 183.
79. Piozzi, 70.
80. *Ibid.*, 57.
81. Boswell, *Johnson*, 1124.
82. *Ibid.*, 1126.
83. Bailey, 30.
84. Boswell, 351.
85. Krutch, 366.
86. Boswell, *Hebrides*, 20.
87. Boswell, *Johnson*, 343.
88. *Boswell: The Ominous Years*, 133.
89. Low, *Gibbon*, 223.
90. Lovejoy, Arthur, *Essays in the History of Ideas*, 39.
91. Walpole, Mar. 28, 1786.
92. In Gibbon, *Memoirs*, 22on.
93. Boswell, *Hebrides*, 11.
94. Boswell, *Johnson*, 222.
95. *Hebrides*, 140.
96. *Johnson*, 988.
97. Pearson, 262.
98. Greene, Donald, *Politics of Samuel Johnson*, 270.
99. Boswell, *Johnson*, 744.
100. *Ibid.*, 1025.
101. 807.
102. 362.
103. Bailey, 104.
104. Boswell, *Johnson*, 807.
105. *Ibid.*, 410.
106. 263.
107. 525.
108. 274.
109. Hawkins, 208.
110. Boswell, *Johnson*, 267, 414, 469, 514, 740; *Boswell's London Journal*, 276, 281.
111. *Ibid.*, 253; Johnson, *Works*, XII, 111.
112. Boswell, *Johnson*, 787.
113. *Ibid.*, 341.
114. 309.
115. 486.
116. Greene, 161.
117. *Ibid.*, 167.
118. *Taxation No Tyranny*, in *Works*, XII, 225.
119. Boswell, *Johnson*, 508.
120. Johnson, *Works*, XII, 198n.
121. Hawkins, 222.
122. Boswell, *Johnson*, 505.
123. *Ibid.*, 507.
124. 654.
125. In Greene, 195.
126. Boswell, *Johnson*, 33, 1051; Piozzi, 14.
127. Boswell, *Johnson*, 1103.
128. *Ibid.*, 282.
129. 421; Bailey, 103.
130. Pearson, 252.
131. *Ibid.*, 251.
132. *Lives of the English Poets*, I, 63 ("Milton").
133. *Rasselas*, Ch. xxxi; Hawkins, 131.
134. *Lives*, I, 63.
135. Pearson, 248.
136. Boswell, *Johnson*, 352, 807.
137. *Ibid.*, 309.
138. 308.
139. Hopkins, Mary A., *Hannah More*, 61.
140. Hawkins, 108.
141. Johnson, *Works*, X, 169.
142. *Ibid.*, 137, 149.

143. Krutch, 289.
144. Boswell, *Hebrides*, 178.
145. *Ibid.*, 268.
146. *Works*, XII, 413.
147. Pearson, 237.
148. Boswell, *Johnson*, 685n.
149. *Lives*, I, 93.
150. Walpole, Feb. 19, 1781.
151. Walpole, Apr. 14, 1781.
152. Piozzi, 186.
153. Krutch, 522.
154. *Ibid.*, 509.
155. Schuster, *Treasury of the World's Great Letters*, 133.
156. Burney, Fanny, *Diary*, 92.
157. Boswell, *Johnson*, 1109.
158. Krutch, 547.
159. Boswell, *Johnson*, 1059.
160. Hawkins, 255.
161. *Ibid.*, 259.
162. Krutch, 551.
163. Boswell, *Johnson*, 1181.
164. Davis, Bertram, *Johnson before Boswell*, *vii*.
165. *CHE*, X, 213.
166. *Boswell: The Ominous Years*, 103.
167. E.g., Boswell, *Note Book*, *xvii*, 1, 23; Krutch, *Johnson*, 384.
168. E.g., *Boswell: The Ominous Years*, 111.
169. Boswell, *Johnson*, x.
170. Hannah More, *Letters*, 102.
171. *CHE*, X, 213.
172. Letter of May 26, 1791.

CHAPTER XXXIV

1. Gooch, *Maria Theresa*, 124.
2. *Ibid.*, 7.
3. 8.
4. Bearne, Mrs., *A Court Painter*, 323.
5. Ercole, *Gay Court Life*, 272.
6. Castelot, André, *Queen of France*, 20.
7. Zweig, Stefan, *Marie Antoinette*, 9.
8. Padover, Saul, *Life and Death of Louis XVI*, 30.
9. Gooch, *Maria Theresa*, 122.
10. Padover, 30.
11. Castelot, 37.
12. *Ibid.*, 40.
13. Zweig, 21.
14. Castelot, 64.
15. *Ibid.*, 73; Dakin, *Turgot and the Ancien Régime*, 19.
16. Walpole, July 10, 1774.
17. Mathiez, Albert, *The French Revolution*, 9.
18. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 122.
19. Maine, Sir Henry, *Ancient Law*, 48.
20. Cobban, Alfred, *History of Modern France*, I, 127.
21. Taine, *The Ancient Regime*, 95.
22. *Ibid.*, 68-69.
23. Mathiez, 5.
24. Taine, *Ancient Regime*, 118, 98.
25. Ercole, 370.
26. Castelot, 85.
27. Campan, Mme., *Memoirs*, I, 317.
28. Mossiker, Frances, *The Queen's Necklace*, 201.
29. *Ibid.*, 163.
30. Castelot, 66, 158.
31. Lacroix, *The Eighteenth Century*, 35.
32. Vigée-Lebrun, Mme., *Memoirs*, 56.
33. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, VIII, 294.
34. Castelot, 174.
35. Cobban, Alfred, *Historians and the Causes of the French Revolution*, 5, 14.
36. Mme. Campan gives several examples (*Memoirs*, I, 190-94).
37. Cobban, *History of Modern France*, I, 115.
38. Castelot, 123.
39. Faÿ, Bernard, *Louis XVI, ou La Fin d'un monde*, 311.
40. Havens, G. R., *The Age of Ideas*, 392.
41. In Mossiker, *Queen's Necklace*, 160.
42. Castelot, 119.
43. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 119, 125.
44. *Ibid.*, 119.
45. Castelot, 122.
46. *Ibid.*, 121.
47. 124.
48. Zweig, *Marie Antoinette*, 137.
49. Padover, *Louis XVI*, 102.
50. Ségur, Marquis de, *Marie Antoinette*, 104.
51. *Ibid.*
52. Michelet, *Histoire de France*, V, 491.
53. "The Good-natured King."
54. Campan, Mme., *Memoirs*, I, 178.
55. Padover, *Louis XVI*, 118-19.
56. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 545.
57. Gibbon, *Decline and Fall*, ed. J. B. Bury, IV, 529.
58. Padover, *Louis XVI*, 23.
59. Campan, Mme., I, 185n.
60. Faÿ, *Louis XVI*, 8.
61. Taine, *Ancient Regime*, 304.
62. Funck-Brentano, 546.
63. Campan, I, 180.
64. Stryienski, *Eighteenth Century*, 213.
65. Gooch, *Catherine the Great*, 230.
66. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 350.
67. Dakin, *Turgot*, 126.
68. Say, Léon, *Turgot*, 101.
69. Robinson, J. H., *Readings in European History*, 426.
70. See *Age of Louis XIV*, 160.
71. Voltaire, *Works*, XXIb, 347.
72. Parton, *Life of Voltaire*, II, 535.
73. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 340.
74. Dakin, 187; Padover, *Louis XVI*, 75.
75. Say, 12.

76. Dakin, 152; Tocqueville, 190.
77. Tocqueville, 190.
78. Say, 161-66; Funck-Brentano, 554.
79. Renard, Georges, *Guilds in the Middle Ages*, 125.
80. Martin, H., *France*, XVI, 371.
81. *Ibid.*, 372.
82. Taine, *Ancient Regime*, 237.
83. Padover, *Louis XVI*, 92.
84. Dakin, 221.
85. Say, 185-91.
86. Dakin, 263; Martin, H., *France*, XVI, 379.
87. Michelet, *Histoire de France*, V, 480.
88. Say, 43.
89. Warwick, *Mirabeau and the French Revolution*, 104. On L'Hôpital see *The Age of Reason Begins*, 337-45.
90. Jaurès, Jean, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 159.
91. Martin, H., *France*, XVI, 387.
92. Taine, *Ancient Regime*, 302.
93. Michelet, *Histoire de France*, V, 488.
94. Campan, Mme., I, 181.
95. Tocqueville, 191.
96. Lecky, *History of England in the 18th Century*, V, 39-41.
97. Padover, *Louis XVI*, 108; Martin, H., *France*, XVI, 416.
98. Becker, Carl, *The Heavenly City of the 18th-Century Philosophers*, 77.
99. Lecky, IV, 50.
100. *History Today*, October, 1957, 659.
101. Martin, H., *France*, XVI, 428.
102. Morris, R. B., *The Peacemakers*, 104-7.
103. *CMH*, VIII, 93.
104. Gooch, *Catherine the Great*, 97.
105. Martin, H., *France*, XVI, 500-1.
106. *Ibid.*, 504.
107. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power upon History*, 337.
108. Morris, *Peacemakers*, 178-81.
109. Lecky, IV, 256-59.
110. *Ibid.*
111. Morris, 277.
112. *Ibid.*, 461.
113. Tocqueville, 155.
114. *Ibid.*, 119.

CHAPTER XXXV

1. Parton, *Life of Voltaire*, II, 491.
2. *Ibid.*, 496.
3. Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 427.
4. Chaponnière, *Voltaire chez les calvinistes*, 162.
5. Faguet, *Literary History of France*, 508.
6. Lanson, Gustave, *Voltaire*, 158.
7. Torrey, N. L., *The Spirit of Voltaire*, 150.
8. Brandes, *Voltaire*, II, 317.
9. Wagnière in Parton, II, 564.
10. *Ibid.*
11. Note to Walpole, *Letters*, VII, 35.
12. Brandes, *Voltaire*, II, 322; Parton, II, 367.
13. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, VIII, 199-200; Campan, I, 323; Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 393.
14. Parton, *Life of Voltaire*, II, 568.
15. Brandes, II, 324.
16. Pomeau, 263.
17. Noyes, *Voltaire*, 583.
18. Pomeau, 307.
19. Desnoiresterres, VIII, 230.
20. Lanson, *Voltaire*, 200.
21. Desnoiresterres, VIII, 232-33.
22. *Ibid.*, 235.
23. 236.
24. 245.
25. Wiener, Leo, *Anthology of Russian Literature*, I, 357.
26. Noyes, 600.
27. Brandes, *Voltaire*, II, 336.
28. *Ibid.*, 337.
29. Desnoiresterres, VIII, 283-91.
30. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 199.
31. Ducros, *French Society in the 18th Century*, 121.
32. Desnoiresterres, VIII, 302.
33. *Ibid.*, 306; Brandes, *Voltaire*, II, 340.
34. Strachey, Lytton, *Books and Characters*, 121n.
35. Brandes, II, 341.
36. Desnoiresterres, VIII, 334, 365.
37. Pomeau, 447.
38. Desnoiresterres, VIII, 359.
39. *Ibid.*, 366; Crèqui, Marquise de, *Souvenirs*, 235n.
40. Brandes, *Voltaire*, II, 348.
41. Gooch, *Catherine the Great*, 70.
42. In Brandes, *Voltaire*, II, 94n.: the order has been slightly changed.
43. *Ibid.*, 354.
44. Parton, II, 494.
45. Voltaire, *La Guerre de Genève*, in Josephson, *Rousseau*, 479.
46. Hendel, Charles, *Citizen of Geneva*, 92.
47. Josephson, 481.
48. Hendel, *Citizen*, 98.
49. *Ibid.*, 99 (letter of Oct. 10, 1769).
50. *Ibid.*, 101 (letter of Jan. 17, 1770).
51. See *Age of Voltaire*, 565.
52. Michelet, *Histoire de France*, V, 485.
53. Morley, *Rousseau*, II, 156.
54. Josephson, 495.
55. Rousseau, *The Confessions*, II, end.
56. Josephson, 501.
57. *Ibid.*
58. Desnoiresterres, VII, 488.
59. Vaughn, C. E., *Political Writings of Rousseau*, II, 445.
60. *Ibid.*, 376, 381.
61. Rousseau, *Rousseau juge de Jean-Jacques*, p. x.
62. *Ibid.*, 19.

63. 64-67.
64. 120, 124.
65. 117-18.
66. 292, 302, 327.
67. Third Dialogue.
68. *Rousseau juge*, 319 f.
69. Josephson, 508.
70. *Reveries of a Solitary*, Ninth Promenade.
71. Josephson, 518.
72. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, II, 213-15, 301-2.
73. *Ibid.*, 246.
74. Josephson, 502; Faguet, *Vie de Rousseau*, 399.
75. Josephson, 527.
76. Babbitt, Irving, *Spanish Character and Other Essays*, 225.
77. Cassirer, *The Question of Rousseau*, 39.
78. Lemaître, *Rousseau*, 247.
79. Lanson, *Histoire de la littérature française*, 798.
80. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 236.
81. Schiller, "Rousseau," in *Poems*, 25. In *Works*.
82. In Maritain, *Three Reformers*, 225.
83. *Collection complète des oeuvres*, I, 186.
84. Cassirer, *Question of Rousseau*, 39.
85. Pomeau, 340.
86. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 239-44.
87. *Ibid.*, 74.
88. In Morley, *Rousseau and His Era*, II, 273.
89. Masson, *La Religion*, III, 227.
90. Burke, "Letter to a Member of the National Assembly," in *Reflections on the French Revolution*, 262.
91. Taine, *Ancient Regime*, 317.
92. Lemaître, 361.
93. Lanson, *Histoire de la littérature française*, 798.
94. Crocker, *The Embattled Philosopher*, 310.
95. Ségur, *Julie de Lespinasse*, 4[illegible].
96. Letter of Feb. 27, 1777, in Hazard, *European Thought*, 323.
97. Ford, Miriam de, *Love Children*, 212.
98. Havens, *Age of Ideas*, 351.
99. Crocker, *Embattled Philosopher*, 400.
100. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, "Avertissement," *v-vi*.
101. Crocker, *Embattled Philosopher*, 433.
102. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 213.
103. Schapiro, J. S., *Condorcet*, 69.
104. Russell, Bertrand *History of Western Philosophy*, 722.
105. Schapiro, *Condorcet*, 91.
106. Martin, H., *France*. XVI, 525.
107 Schapiro, 96-97.
108. So reads the ms. in the Bibliothèque de l'Institut.
109. See *The Age of Voltaire*, 775.
110. Condorcet, *Sketch for a Historical Picture of the Progress of the Mind*, p. *v*.
111. *Ibid.*, 105.
112. 10.
113. 179.
114. Aulard, A., *The French Revolution*, I, 123.
115. Schapiro, 80, 88.
116. Condorcet, 193.
117. *Ibid.*, *x-xi*, 175.
118. 4.
119. 188.
120. 169.
121. 202.
122. Schapiro, 107.
123. Tocqueville, 8.
124. Taine, *Ancient Regime*, 317.
125. Aulard, I, 83.
126. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 284.
127. Aulard, I, 83.
128. Robertson, J. M., *Short History*, 288.
129. Tocqueville, 165.
130. In Sée, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 107.
131. Padover, *Louis XVI*, 6, 7, 11.
132. Tocqueville, 156.
133. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 237.

CHAPTER XXXVI

1. Sée, *Economic and Social Conditions*, 61; Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 60; Taine (*The French Revolution*, I, 168) estimated the value of church property at four billion livres.
2. Herbert, Sydney, *The Fall of Feudalism in France*, 40.
3. Mornet, Daniel, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 278.
4. *Ibid.*, 274; Sée, 66.
5. *Ibid.*; Taine, *French Revolution*, I, 162-63.
6. Sée, 66.
7. Taine, *French Revolution*, I, 167.
8. Burke, Edmund, *Reflections on the French Revolution*, 142.
9. Sanger, W., *History of Prostitution*, 131.
10. Sée, 23; Mornet, 276.
11. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 14.
12. Lacroix, Paul, *The Eighteenth Century in France*, 346.
13. Taine, *Ancient Regime*, 291.
14. Mornet, 335.
15. Lacroix, 265
16. Mornet, 331.
17. Faÿ, *Louis XVI*, 280.
18. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 512.
19. Faÿ, 280.
20. Lecky, *England in the 18th Century*, V, 308.

21. Martin, H., *France*, XVI, 353.
22. Mornet, 212.
23. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 554.
24. Martin, H., *France*, XVI, 585.
25. Tocqueville, 9.
26. Herbert, S., *Fall of Feudalism*, 84.
27. See *Age of Voltaire*, 776-80.
28. In Crocker, *Age of Crisis*, 392.
29. In Becker, *Heavenly City*, 80.
30. Carlyle, *Essay on Diderot*.
31. Restif de La Bretonne, *La Vie de mon père*, 90 f.
32. Taine, *Ancient Regime*, 380.
33. Laclos, Choderlos de, *Les Liaisons dangereuses*, Letter LXVI.
34. See Plato, *The Republic*, Nos. 338-44.
35. De Sade, Comte, *Juliette*, in Crocker, *Age of Crisis*, 15.
36. Guerard, Albert, *Life and Death of an Ideal*, 294.
37. Mme. d'Oberkirch in Taine, *Ancient Regime*, 163.
38. Köhler, Carl, *History of Costume*, 366.
39. Boehn, *Modes and Manners*, IV, 215.
40. In Loomis, *Du Barry*, 169.
41. *Decline and Fall of the Roman Empire*, near end of Ch. xix.
42. Gibbon, *Correspondence*, II, 46, in *Memoirs*, 222n.
43. See *Age of Voltaire*, 301-2.
44. Walpole, Dec. 2, 1765.
45. Koven, Anna de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 102, 116.
46. *Ibid.*, 127.
47. Watson, Paul, *Some Women of France*, 90.
48. *Ibid.*
49. 80; Koven, 157.
50. *Ibid.*, 195.
51. Crocker, *Embattled Philosopher*, 354.
52. Gambier-Parry, *Madame Necker*, 78.
53. *Ibid.*, 215.
54. Crequi, Marquise de, *Souvenirs*, 192-94.
55. Gambier-Parry, 250.
56. Anderson, E., *Letters of Mozart*, II, 787.
57. Einstein, *Mozart*, 356.
58. Lespinasse, *Letters*, 138.
59. Rolland, Romain, *Essays in Music*, 147.
60. *Grove's Dictionary of Music*, II, 456.
61. Young, Arthur, *Travels in France*, 67.
62. Louvre.
63. In the Institute, Paris.
64. Dilke, Lady Emilia, *French Architects and Sculptors*, 130. It is now in the Ecole des Beaux-Arts in Paris.
65. *Time* magazine, Jan. 31, 1764, p. 44.
66. *Ibid.*
67. All in the Louvre.
68. Both in the Louvre.
69. Vigée-Lebrun, 42.
70. Louvre.
71. Private collection.
72. Taine, *French Revolution*, I, 141; Mornet, *Origines intellectuelles*, 410; La Fontainerie, *French Liberalism*, 23.
73. Mornet, 443.
74. Lecky, V, 394.
75. Mornet, 426.
76. *Enc. Brit.*, XVI, 340d.
77. Lecky, V, 425.
78. Ducros, *French Society*, 314.
79. *Ibid.*
80. Faguet, *Literary History*, 539.
81. Chamfort, Sébastien, *Maximes*, 25.
82. *Ibid.*, 27.
83. 6.
84. 71.
85. 67.
86. 69.
87. 62.
88. 87.
89. 89.
90. 26.
91. 539.
92. *Ibid.*, preface, p. 50.
93. In Masson, *La Religion de Rousseau*, III, 137-38.
94. Bernardin de Saint-Pierre, *Paul et Virginie*, 15, 34, 58.
95. In Bury, J. B., *The Idea of Progress*, 200; italics ours.
96. Restif de La Bretonne, *La Vie de mon père*, 75.
97. Palache, *Four Novelists of the Old Regime*, 172.
98. *Ibid.*, 191.
99. Restif, *La Vie de mon père*, 14.
100. Chadourne, *Restif de La Bretonne*, 185.
101. *Ibid.*, 354.
102. Palache, 246.
103. Chadourne, 223.
104. *Ibid.*, 219.
105. Restif, *Les Nuits de Paris*, Nos. 109-114.
106. Ibid., No. 112.
107. No. 103.
108. Young, Arthur, 143.
109. Beaumarchais, letter of June 16, 1755, in Lomenie, *Beaumarchais and His Times*, 55.
110. *Ibid.*, 78.
111. 94.
112. Voltaire, letter of Jan. 3, 1774.
113. Lomenie, *Beaumarchais*, 263, 269 f.
114. Havens, *Age of Ideas*, 368.
115. Beaumarchais, *The Barber of Seville*, Act I, in Matthews, *Chief European Dramatists*, 332.
116. *Ibid.*
117. Blom, Eric, *Mozart*, 119n.
118. Lomenie, *Beaumarchais*, 250.
119. *Ibid.*, 252.
120. *Le Mariage de Figaro*, directions to the players, in Beaumarchais, *Oeuvres*, 184.
121. *Ibid.*, Act II, Sc. ii.

122. V, vii.
123. V, xii.
124. II, xxi.
125. V, iii.
126. Preface, *Oeuvres*, 172.
127. Loménie, *Beaumarchais*, 351.
128. *Ibid.*, 383-84.
129. Havens, 382.
130. Loménie, 348.

CHAPTER XXXVII

1. Sée, *Economic and Social Conditions*, 8.
2. Labrousse, C. E., in Cobban, *Historians and . . . the French Revolution*, 35.
3. Young, Arthur, *Travels in France*, 70.
4. *Ibid.*, 19.
5. Herbert, *Fall of Feudalism*, 5-10.
6. *Ibid.*, 12, 15.
7. Lefebvre, Georges, *Coming of the French Revolution*, 121.
8. Sée, *Economic Conditions*, 54.
9. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 36.
10. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution*, 143.
11. Michelet, *Histoire de France*, V, 548.
12. Martin, H., *France*, XVI, 512n.
13. Tocqueville, 193; Taine, *Ancient Regime*, 300 f.; Taine, *French Revolution*, I, 157.
14. Goodwin, *The European Nobility*, 41.
15. Argenson, Marquis d', *Pensées sur la réformation de l'état*, in Sée, *Economic Conditions*, 109.
16. Young, 24.
17. Herbert, *Fall of Feudalism*, 58; Sée, 5; Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 310.
18. Chamfort, *Maximes*, 90.
19. Young, 125, 61.
20. Lefebvre, 116; see also Taine, *Ancient Regime*, 335-36.
21. Lefebvre, 118.
22. *Ibid.*
23. Jaurès, I, 76.
24. Note *CMH*, VII, 237.
25. Mousnier and Labrousse, *Le Dix-huitième Siècle*, 137.
26. Strvienski, *Eighteenth Century*, 271.
27. Lefebvre, 87
28. Lacroix, *Eighteenth Century in France*, 340.
29. French, Sidney, *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 87.
30. Young, 103.
31. Lefebvre, 97.
32. *Ibid.*, 21.
33. Sée, 183; Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 198.
34. Mousnier and Labrousse, 186.
35. Taine, *Ancient Regime*, 387.
36. *Ibid.*, 388.
37. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 109.
38. *Ibid.*, 110.
39. *Ibid.*
40. Taine, *Ancient Regime*, 334.
41. *Ibid.*, 361.
42. Lecky, V, 394; Gershoy, 308.
43. Jaurès, I, 69.
44. *Ibid.*, 68.
45. Sée, 148.
46. Cobban, *History of Modern France*, I, 123.
47. Jaurès, I, 62; Sée, 197-98.
48. Taine, *Ancient Regime*, 351-52.
49. Lefebvre, 14.
50. Jaurès, I, 62.
51. *Ibid.*, 98.
52. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 404.
53. Taine, 320.
54. Beard, Miriam, 352.
55. Lecky, V, 484.
56. See above, Ch. iii, Sec. v.
57. Lichtenberger, André, *Le Socialisme et la Révolution française*, 35; Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 252.
58. Lichtenberger, 447.
59. *Ibid.*, 446-50.
60. *Enc. Brit.*, II, 238b.
61. Lichtenberger, 442 f.
62. Mornet, 360.
63. *Ibid.*, 364; Lefebvre, 43.
64. Cumming, Ian, *Helvétius*, 126-28.
65. *Ibid.*, 119.
66. Fülop-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 436.
67. Faÿ, *La Franc-Maçonnerie*, 242.
68. Georgel, *Memoirs*, II, 310, in Buckle, Ib, 665.
69. Mornet, 450.

CHAPTER XXXVIII

1. Young, Arthur, *Travels in France*, 15.
2. Ségur, *Marie Antoinette*, 121; Castelot, 184.
3. Faÿ, *Louis XVI*, 293.
4. Gooch, *Maria Theresa*, 168.
5. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 57.
6. Mossiker, *Queen's Necklace*, 36.
7. *Ibid.*, 37, 200, 203.
8. 105.
9. *Vie de Jeanne de Valois*, by herself, in Mossiker, 63.
10. *Enc. Brit.*, VII, 321a.
11. Mossiker, 183-84.
12. *Ibid.*, 226.
13. 273.
14. 269.
15. Faÿ, *Louis XVI*, 275.
16. Mossiker, *ix*.
17. Martin, H., *France*, XVI, 530.

18. Taine, *Ancient Regime*, 92.
19. Martin, H., XVI, 573.
20. Paine, Thomas, *The Rights of Man*, 80.
21. Stryienski, *Eighteenth Century*, 286.
22. Young, Arthur, 92.
23. *Ibid.*, 97.
24. Guérard, A., *Life and Death of an Ideal*, 308.
25. Martin, H., *France*, XVI, 597.
26. Lefebvre, 29; Cobban, *History of Modern France*, I, 128.
27. Martin, H., XVI, 608.
28. Stewart, J. H., *Documentary Survey of the French Revolution*, 27-29; Martin, H., XVI, 612.
29. Michelet, *The French Revolution*, 118.
30. Michelet, *Histoire de France*, V, 545.
31. Faÿ, *Louis XVI*, 308; Taine, *French Revolution*, I, 2.
32. Aulard, I, 129; Michelet, *French Revolution*, 73.
33. Lichtenberger, 20; Martin, H., XVI, 630n.
34. Tocqueville, 121.
35. Herbert, *Fall of Feudalism*, 76, 87.
36. *Ibid.*, 76.
37. *CMH*, VIII, 128.
38. Barthou, Louis, *Mirabeau*, 11.
39. *Ibid.*, 62.
40. 68.
41. Michelet, *Histoire de France*, V, 515.
42. Crocker, *Embattled Philosopher*, 436.
43. Barthou, 91.
44. *Ibid.*, 97.
45. 118.
46. 138.
47. 162.
48. 163; Martin, H., *France*, XVI, 624.
49. Jaurès, I, 77.
50. Michelet, *Histoire de France*, V, 554.
51. Herbert, *Fall of Feudalism*, 95.
52. Taine, *French Revolution*, I, 17.
53. Taine, *Ancient Regime*, 378.
54. Martin, H., *France*, XVI, 625.
55. Lefebvre, 94.
56. *Enc. Brit.*, XVI, 909d.
57. Faÿ, *Louis XVI*, 312.
58. *Ibid.*, 305.
59. *Enc. Brit.*, XII, 491b.
60. Taine, *French Revolution*, I, 28.
61. *Enc. Brit.*, XII, 491b.
62. Taine, I, 28.
63. *CMH*, VIII, 133; Cobban, *History of Modern France*, I, 140.
64. Barthou, 171.
65. Young, Arthur, 153.
66. Lefebvre, 72.
67. Young, 176.
68. Lefebvre, 76.
69. Young, 176.
70. Lefebvre, 77.
71. Young, 177.
72. Michelet, *French Revolution*, 137; Lefebvre, 80-81.
73. Speech of July 8, 1789, in Barthou, 186.
74. Mme. Campan, *Memoirs*, I, 358.
75. Mme. de Staël, *Considérations sur la Révolution française*, in Ducros, *French Society*, 316.
76. Kropotkin, Peter, *The Great French Revolution*, 61-63.
77. Michelet, *French Revolution*, 133.
78. *Ibid.*, 141.
79. Lefebvre, 86.
80. Taine, *French Revolution*, I, 42.
81. Michelet, *French Revolution*, 150.
82. Lefebvre, 101.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٥٥٦٦

مطابع الدجوى القاهرة — عابدين